قُرَيش
تَفقد قيادَة أمّة الإسْلام

قُريش وَالرياسَة فى أمّة الإسْلام :

هكذا عادت قريش إلى رياسة أمة العرب ودولتهم ، لقد روينا خبر بداية الاستيلاء على السلطان وبقية الخبر لا نجد صعوبة فى تتبعها خلال خلافة أبى بكر وعمر ، ولقد بدأت عملية سيطرة قريش على مصائر أمة الإسلام وكأنها مصادفة ، نتيجة لما كان من إهمال أُولى الأمر للأنصار ، ولقد أبدى أبو بكر يوم السقيفة ذكاء بعيداً وحُسْنَ تصور لمسيرة الأحداث بعد موت الرسول ﷺ ، ومن الواضح أن أبا بكر أنقذ الأمة من التفرق فى هذا الظرف العسير ، ثم دل بعد ذلك على حكمة بالغة فى مواجهته لحركة الردة وقضائه عليها بسرعة لا تكاد تصدق ، وما إن رأى أبو بكر حماس الناس فى الحجاز وما حوله للاشتراك فى الدفاع عن أمة الإسلام حتى أسرع فى تكوين الجيوش وإقامة القواد دون نظر إلى استرضاء غاضب أو استقدام عازف عن القيادة ، ولم تكد حروب الردة تنتهى ، حتى دفع أبو بكر العرب فى حروب فارس والروم .

وقد رأينا فى الفقرة السابقة حسن بلاء الأنصار فى حروب الردة ، فكيف لو كان لهم من القيادة النصيب الذى يستحقونه على أساس قول أبى بكر أن يكون الأمر قسمة بين المهاجرين والأنصار كشق الأُبْلُمَةِ[1] ولكن الأمور سارت فى طريقها المقدر ، ولقد كان أسامة فاتح باب الفتوح بالتوفيق الذى بلغه فى مسيره إلى أُبْنَى من بلاد بلقاء الشام كما أمره رسول الله ﷺ ، وقد كان حرص أبى بكر على إرسال بعث أسامة عظيماً ، وكانت فرحته عظيمة بعودته أيضاً ولكن يستوقف النظر أن أبا بكر لم يجعله على شىء من فتوح الشام ، بل كان أول من اختاره لقيادة بعث إلى الشام رجلاً صالحاً من أبناء أبى أحيحة سعيد بن العاص ، وهو خالد بن سعيد ، وهو من قدماء

(١) الأبلمة : هى الخُوصة . وذلك لأنها تؤخذ فتُشقُّ طولاً على السواء . أى : نحن وإياكم فى الحكم سواء .

المسلمين وصالحيهم ولكنه لم يشارك فى شىء من نشاط المغازى ولم يكن خالص النية فى بيعة أبى بكر إذ أنه تأخر عنها وقال كلاماً ساء أبا بكر وعمر خاصة ، ولكنه يتولى رغم ذلك البعث الأول الذى بعث به أبو بكر إلى الشام ، ولقد طلب إليه أبو بكر أن ينتظر بمن معه عند مؤتة ليكون رِدْءً للقوات التى سيبعث بها ، ولكن خالداً تسرَّع وأوغل فى بلاد الروم حتى بلغ مرج الصفَّر جنوب شرق دمشق وهناك دهمه الروم وهزموا جيشه وفرَّ هارباً بحشاشة نفسه ، ليشترك بعد ذلك فى جيش يزيد بن أبى سفيان ويستشهد فى معركة أجنادين .

وإنه لما يستوقف النظر أن يختار أبو بكر ستة قواد : اثنين منهم لفتح العراق هما خالد بن الوليد وعياض بن غنم ، وأربعة لفتح الشام هم : يزيد بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وشرحبيل بن حسنة ، فإذا فهمنا تفضيل أبى بكر للخمسة الأُوَل فأىّ فضل على أسامة بن زيد يكون لشرحبيل بن حسنة ، وهو صحابى فاضل ولا شك ، ولكن لم تكن له سابقة قيادة ولا دربة حرب وهو على عظيم فضله كان مولى حليفاً لبنى زهرة ، ولا ندرى كيف أخذه أبو بكر وترك أسامة فلم يظفر بقيادة إلى أن مات .

ولكن الأمور تتجه فى أمة الإسلام اتجاهاً ينتهى بالرياسة إلى بنى أمية ولن ندخل فى تفاصيل ذلك فهو معروف شائع فى الكتب جميعاً ، ولا حاجة بنا فى هذه الدراسة إلى الدخول فى تفاصيل فتنة عثمان وما تلاها من الأحداث الجسيمة ، التى ألقت بزمام الأمور فى النهاية فى يد بنى أمية بقيام الدولة الأموية فى دمشق فى عام الجماعة سنة ٤١هـ/ ٦٦١م . لا مفر لنا من الإيجاز الآن وإلا استطال البحث إلى ما لا نهاية ونحن هنا ندرس تاريخ قريش لا تاريخ الإسلام كله ، وحسبنا فى ذلك تعيين الاتجاهات العامة والمراحل الحاسمة فى تاريخ قريش بعد الإسلام .

ودون دخول فى التفاصيل نستطيع أن نقول إنه عندما توفى عمر بن الخطاب كان معاوية بن أبى سفيان أقوى رجال الدولة ، وأكثرهم مالاً وأعظمهم ولاية . والظاهرة معروفة من قديم الزمان ألَّف فيها المقريزى كتابه المسمى بـ « النزاع والتخاصم فيما

بين بنى أمية وبنى هاشم » ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن عمرو بن العاص عامل مصر حليف معاوية وصاحبه وسليل بنى سهم بن هصيص حلفاء بنى أمية فى حلف لعقة الدم أعداء حلف الفضول وأصحابه تبيَّنا أن جبهة معاوية وعمرو أى جبهة الشام ومصر كانت أقوى جبهة وأغنى فى دولة الإسلام عند موت عمر بن الخطاب ، ولقد زاد معاوية قوة فى الشام خلال خلافة عثمان ، وازداد جمعه بانضمام عمرو بن العاص إليه ، ومن الواضح أن تطور الأمور على هذا النحو يرجع إلى أن معاوية وبنى أمية وأحلافهم كانت تغلب عليهم من أول الأمر نزعة السياسة والاتجاه إلى القوة والرياسة ، وهذا ظاهر فى حالة عمرو بن العاص من أيام الرسول ﷺ ، وظاهر فى حالة معاوية بن أبى سفيان الذى لبس ثياب رجال الملوك واتخذ هيئتهم وزعم لعمر ابن الخطاب أن هذا مجرد مظهر وأنه يتخذه لتكون له هيبة فى قلوب المحكومين ورهبة عند الأعداء ، ومن بادىء الأمر أخذ معاوية يستدعى آله ويسند إليهم الأمور ويعطيهم الأموال ، واستتشرى الأمر فى أيام عثمان عندما أخذ معاوية يغدق الأموال على الجند ورؤسائهم خاصة ، حتى اصطنعهم وصاروا رجاله .

أما بنو هاشم فقد حافظوا على الاتجاه الدينى الذى عرفوه فى أيام الرسول ﷺ وخليفتيه أبى بكر وعمر ورأسهم فى ذلك على بن أبى طالب ، وكان عمر قد اشتد مع الناس وحملهم على الجادة حتى تعبوا من حكمه واستطالوا أيامه - كما يقول المؤرخون - وفى أثناء اجتماع أهل الشورى رفض علىّ ما اشترط عليه عبد الرحمن بن عوف التزام طريق الشيخين ، فلم يوافق على ذلك ، لا لأنه كان لا يرى ذلك ، بل لأنه وهو من أكابر أصحاب رسول الله وأهل العلم والفقه فى الإسلام ، يريد أن يحتفظ بشخصيته المستقلة فتحوَّل عنه عبد الرحمن بن عوف إلى عثمان بن عفان ، وكان يعرف مقدماً أن عثمان سيقبل ، وكانت الغالبية لا تريد رجلاً يسير فيهم فى شدة عمر ، وأجس على بن أبى طالب بذلك ، ويُؤْثَر عنه أنه قال : إن قريشاً تكرهنى لا كرهاً فىّ ، وإنما رغبة فى أن يصيبوا شيئاً من غنى العيش الذى اجتمعت لهم أسبابه .

وكأنما كان علىٌّ يريد أن يمسك بِقَرْنى ثور ضجر من النِّير[1] وأحب أن ينطلق .

---

(١) النير : الخشبة التى تكون على عنق الثور بأداتها للحراثة . لسان العرب .

ولم يكن يستطيع بداهة أن يقف فى وجه التيار وحده . وخسر المعركة السياسية وإن لم يخسر العسكرية ، وكان من الممكن أن يفىء الناس إليه من جديد ، ولكن الموت الغادر عاجله فانفسح المجال أمام معاوية ، وخلا له الميدان وكانت الحرب قد طالت والفتنة قد ثقلت وطأتها على الناس ومالت بهم أنفسهم إلى المسالمة وخاف الصلحاء علّى مصير الأمة من استمرار الفتنة ، ثم إن مكاسب السياسة وسلطان الرياسة لم يكونا عندهم بشىء يُذْكَر ، إذا اقتضى الأمر الحفاظ على وحدة الأمة .

وكان صلحاء الناس قليلين ، أما الغالبية فتسارعت إلى طلب الدنيا وحازوها وأصبح فى استطاعة معاوية أن يعطيهم منها ، فاستقام له الأمر وأصبح صاحب السلطان المطلق فى دولة الإسلام ، وما دام معاوية ومن انضم إليه من طلاب السلطان قد ملكوا زمام القوة ، فلم تكن لهم القدرة على الوقوف عند الحد المأمون بعد أن ذاقوا طعم السلطان المطلق وأصبح عمادهم الوحيد على القوة ، ولم يَعُدْ لبنى أمية أنصارهم صبر على المخالفة ، فجرى القتل ظلماً على الناس وبعد مقتل حُجْر بن عدى وأصحابه قال القائل : لا زالت العرب تقتل بعد ذلك أبداً . ومن مصرع حُجْر إلى مصرع الحسين وآله رضى اللّه عنهم خطوة ، والسلطان غلاب ونشوته تطيش لها العقول وتضل البصائر ، وطريق الدم بلا نهاية فغرق بنو أمية - سفيانيون ومروانيون - فى الدماء وسالت دماء الخوارج وقُضى على كل معارض .

وبعد استشهاد الحسين تحرك الندم فى قلوب الكثيرين من المسلمين ، وبدأوا يتجمعون تحت راية الدعوة لآل على فاشتد حماس الناس للدعوة الهاشمية وصارت ناراً تحت الرماد ، وأصبحت الهاشمية لواء يستظل به كل راغب فى العدل وكاره للمُلْك العضوض ، وثاب نفر من الأنصار المنهزمين إلى رشدهم وتصدوا لبنى أمية فأكلتهم السيوف فى وقعة الحرة يوم الأربعاء ٢٨ ذو الحجة سنة ٦٣هـ ، وما كان حواراً بين فريقين من أسرة واحدة تحت سقيفة بنى ساعدة ، تحول إلى إقصاء عن السلطان للمغلوبين من الأنصار بعد فوز القرشيين ، ثم أصبح اليوم مذبحة .

ففى يوم الحرة كانت نهاية القوة السياسية للأنصار فى قلب الدولة ، فتفرقت بقيتهم فى الأمصار ووجدوا عند الناس كرامة ومحبة ، ففيهم الكثير من الصحابة

والتابعين ، وكانت من بينهم بيوت لها شأن ، فَعَلا شأنها فى الأمصار وخاصة فى مصر والمغرب والعراقين وخراسان ، وانضم إليهم فى خراسان حلفاء بيت على بن أبى طالب وأحلاف الرسول من خزاعة وأسلم ، وتجمعت تلك القوى كلها فى خراسان وفى ساحة السياسة كان الفوز للأمكر والأدهى ، أما فى ساحة الحرب فكان النصر للأقوى فآلت الخلافة إلى العباسيين بعد ثورة داخلية عربية فى مجموعها ، فقد كان الصراع بين عرب وعرب ، وما كان الموالى إلا مرجحين للكفة واختيار أبى مسلم لقيادة الجبهة العباسية كان حيلة ، وأبو مسلم كان مجرد راية لم تلبث أن تحطمت وخلص السلطان لبنى العباس ، فى حين بدأت الدعوة الشيعية تتحول إلى لواء يتجمع حوله الداعون إلى العدل والراغبون فى التفكير عما أصاب آل البيت بردِّ الأمر إليهم . وسرت دعوة آل البيت فى جماهير الناس ولقيت منهم قبولاً عاماً ، فالمعتدلون الذين وقفوا عند الميل العاطفى والبعد عن العنف صاروا هاشميين فى عواطفهم واتجاهاتهم، وأما المتحمسون والمتطرفون والمغامرون وطلاب السلطان ، فقد تخطوا نطاق العاطفة وطلبوا السياسة والقوة عن طريق تنظيمات مستورة ، لم تلبث أن تحولت إلى ما يسميه بعض المؤرخين أنه أكبر مؤامرة فى التاريخ يريدون بذلك الدعوة الفاطمية .

نهَاية الوحدة القرشيّة :

فى غضون ذلك ماذا أصاب قريشاً ؟

الذى أصابها أنها انتهت كوحدة قبلية ومجتمع صغير متماسك بقوة العصبية ووضوح الهدف والغاية ، وقد ذهب ابن خلدون إلى أن القبيلة « أو حلف القبائل » إذا وصل إلى السلطان وتحول إلى دولة انحلت قوته وضعف بنيانه بضياع العصبية وغلبة الترف على رجالهم واستنامتهم إلى مهاد الدعة والترف ، وهذا كلام لا يَصْدُق إلا على الأحلاف القبلية الضخمة مثل حلف قبائل صنهاجة الجيل الأول الذى أقام دولتى بنى زيرى فى المغرب الأوسط فى النصف الثانى من القرن الهجرى الرابع ، وحلف صنهاجة الجيل الثانى أو صنهاجة الصحراء الذى أقام دولة المرابطين فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، وحلف قبائل مصمودة الذى أقام دولة

الموحدين فى القرن السادس الهجرى ، لأن هذه جماعات قبلية ضخمة جداً تقيم الدولة بسواعد رجالها وتبقى منها بعد ذلك جماعات ضخمة تتولى السلطان وتنتقل من البداوة إلى الحضارة وتتأثر طبائع أفرادها بهذا التحول ، ومثلها فى ذلك مثل قبائل الأتراك السلاجقة وقبائل الأتراك العثمانية ، فكلا هاتين القبيلتين أقام الدولة ، ثم تولى من بقى منهم وهم كثيرون أمورها واستمتع بثمراتها ، وأدى بهما هذا الاستمتاع إلى الضعف ثم التدهور والضياع .

ولكن قريشاً كانت قبيلة صغيرة جداً ، وهى لم تُقِم الدولة بنفسها ، بل أقام الدولة غيرها ، وهيأت لها الظروف سبيل الوصول إلى السلطان فى دولة الإسلام بفضل ما كان عليه قادتها من الميل إلى السياسة والسعى نحو القوة ، ولقد كان القرشيون فى الجاهلية تجاراً مهرة أو بارعين فاتسعت أذهانهم وعظمت أحلامهم وتدربت أو تعودت على معاملة الناس وسياستهم بتدبير شئون المال لهم ، وربطوا ذلك بالحج وشئون الديانة الوثنية ، فجعلوا مكة محجاً للعرب أجمعين ، واستفادوا من نظام الأسواق ليجعلوا أسواقهم فى الحجاز فى موسم الحج . ونهاية العام القمرى مجمع العرب ومصبّ أموالهم ، فنالوا بذلك رياسة فكرية دينية مالية ، ولكنهم لم يتجهوا فى الجاهلية إلى طلب الرياسة السياسية فى شبه الجزيرة ، لأن الرياسة السياسية فى تلك العصور ما كانت لتتم إلا بالقوة العسكرية ، وكانت قريش أقلَّ حجماً وأضعف قوة من الوصول إلى ذلك .

ثم وقفت قريش من الإسلام موقفها الذى فصَّلناه ، وفى أثناء صراعها مع الإسلام انقسمت قسمين : صغير دخل فى الإسلام وكبير عاداه ، مما أضعف قواها ، واستطاع سادتها الوثنيون المحافظة على سيطرتهم على مكة ، وظلت كتلة القبيلة متماسكة فيها حتى فتح مكة ، فدخلت بقية قريش الإسلام دفعة واحدة عند الفتح كما رأينا .

وقد خسرت قريش فى صراعها مع المدينة رياستها الدينية ، وعلى الرغم من بقاء الكعبة محجّاً لمن استطاع الوصول إليها من العرب ، فإن الرياسة الدينية انتقلت إلى المدينة بفضل الإسلام ، وابتداء من عمرة القضاء أو عمرة القضية انتقلت الكعبة إلى

الإسلام ، وفقد القرشيون جاههم الدينى ، وتلاشى هذا السلطان الدينى عند فتح مكة ودخول الكعبة أمة الإسلام ، وتحول الحج من حج وثنى إلى حج الإسلام فتلاشى بذلك إلى غير رجعة عماد القوة الرئيسى الذى أقام عليه عبد المطلب جاه قريش . وفى أثناء الصراع مع أمة الإسلام فقدت قريش معظم أموالها ، وفقدت بذلك عماداً من أقوى عُمُد قوتها وجاهها .

وقد أعاد الرسول صلوات الله عليه وحدة قريش وأدخلها كلها فى الإسلام جملة . وبعد وفاة الرسول مباشرة ونتيجة لما وقع فى سقيفة بنى ساعدة حدث أول انكسار خطير وعميق فى وحدة قريش بعد الإسلام . لأن الاتجاه إلى إبعاد على بن أبى طالب وبنى هاشم عن السلطان أحدث صدعاً خطيراً فى كيان قريش ، ولم يظهر ذلك الصدع فى صورته الخطرة أيام أبى بكر وعمر ، ولكنه ظهر فى خلافة عثمان .

فتنة عُثمان

ثورَة مِن جماعات كبيرة مِن العَرب عَلى رياسة قريش :

والذى ظهر فى خلافة عثمان يمكن اعتباره على وجه من الوجوه ثورة من العرب على قريش ، لأن أقواماً ضخمة من العرب خاضت معارك القتال فى حروب الردة وفى الفتوح ، واستشهد منهم ألوف ولكن الرياسة ظلت دائماً بيد قريش . ولنذكر الألوف الذين استشهدوا فى معارك فتح العراق ، ويكفى هنا أن نذكر معركة الجسر فى شعبان ١٣هـ/ ٢٢ أكتوبر ٦٣٤م التى استشهد فيها أربعة آلاف عربى جلُّهم من ثقيف وشيبان وتميم ، وفُقِد أربعة آلاف آخرون من نفس القبائل ، وكان من بين الشهداء رجل مثل أبى عبيد بن مسعود الثقفى الذى هجم وحده على الفيل وضرب خرطومه وبرك عليه الفيل فقتله ، وقد ظل عمر يبكى إلى آخر حياته كلما ذكر أبا عبيد .

وحتى فى معركة البويب (رمضان ١٣هـ/ نوفمبر ٦٣٤م) التى أخذ المسلمون فيها بثأرهم وانتصروا على الفرس ، كانت ضريبة الدم التى دفعوها باهظة من القبائل التى ذكرناها مضافاً إليهم بجيلة وكنانة والأزد وتنوخ ، وهذه القبائل هى التى تحملت

معظم الخسائر - فى هذه المعركة - ولم تخسر قريش إلا أعداداً لا تُذكر . فقد كانت لها فى معظم الأحوال الرياسة والنصيب الأكبر من المغنم ، ويكفى أن نذكر ما أصاب المثنى بن حارثة الشيبانى ، فقد كان هذا الرجل - مهما قلنا فى كفايته العسكرية - قريباً جداً من المثل الأعلى الإسلامى إخلاصاً وصدقاً وتفانياً وإيثاراً ، ثم يُعزل ويحل محله قرشى ويُهمل دون أى تعويض .

ولكن قيادة قريش كانت مُوفَّقة رغم إنكار جماعات من العرب لرياستها فتمَّ فتح العراق وهزيمة الفرس وفتح الشام ، ولكن معظم الفضل يرجع إلى الجنود البواسل الذين خاضوا هذه المعارك وجادوا بدمهم دون تردد ، ولقد أشرنا إلى عظيم فداء الأنصار فى حروب الردة لكى يُكتب النصر كله لخالد بن الوليد ، ويكون منه بعد ذلك ما يكون .

ولم يكن العرب الذين خاضوا هذه المعارك لينفسوا على قريش مكانة ولا رياسة ولا مالاً ، ما دامت الفتوح الكبيرة فى طريقها ، والمشارك فيها يغنم بعد رضا اللّه وعظيم ثوابه مغانم وافرة ، فمن أدرك ثواب الآخرة فطوبى له ، ومن عاش وجد عنده مالاً وافراً ينفق منه عن سعة ، وقد قُدِّر دخل المقاتل العربى العادى خلال العصر العمرى بثلاثة آلاف دينار فى العام ، فتعوَّد هذا الجندى الإنفاق عن سعة ، وأحس أنه سيجد عوضاً طيباً من خيرات الدنيا إذا أنسأ اللّه فى أجله ، فأنفق على أهله عن سعة وأغناه ذلك عن النظر إلى السلطان أو السياسة ، فتركها لأهلها من قريش ومَنْ ارتضتهم قريش معها فى الرياسات وتدبير الأمور .

وكان أبو بكر الصديق قد ساوى بين الناس فى تقدير الأرزاق والأعطيات ، وقال قولته المشهورة : هذا معاش والتسوية فيه أحسن ، ثم جاء عمر وله نظرة أخرى ، فأعاد تقدير الأرزاق بحسب السابقة فى الإسلام والقرابة من رسول الله ﷺ ، فاختلفت حظوظ الناس ، وجاءت أرزاق من أسلموا عند الفتح وعام الوفود وما بعد ذلك قليلة ، فلا سابقةَ لهم فى إسلام ولا قرابة من رسوله . ولم ينتبه أحد إلى ذلك فى حينه ، فقد كانت الغنائم وافرة والوارد كثيراً وعرب تميم وشيبان وبكر والأزد وبقية

اليمن ومن إليهم لم يشعروا بالتفاوت فى الأرزاق ، لأنها مهما بلغت كانت قليلة جداً بالنسبة إلى مغانم المحاربين من الأسلاب والأخماس .

ولكن الأمر بدأ يتغير من منتصف خلافة عثمان ، فبعد معركة نهاوند لم تعد هناك مغانم ذات بال ، فقد انتهى العرب إلى آخر المدائن الغنية فى فتوحهم ، سواء فى الشرق أم الغرب . ففى الشرق وجدوا أنفسهم مشتبكين فى حروب مع جماعات قبلية من إيرانيين وأتراك وفى الغرب لم تكن هناك وراء إفريقية بلاد فيها ملوك أو قصور أو أموال ، إنما هى قبائل متأبدة فى الجبال وغاية ما يكون منها ماشية وسبى ، والماشية لا تجد من يشتريها . والسبى أين يباع ؟ ولم يكن العرب قد عزموا على فتح بلاد دولة الروم فى آسيا الصغرى ليجدوا مغانم ذات قيمة ، ومنذ السنوات الأولى لخلافة عثمان انحسرت موجة الغنائم الوافرة ، والعربى بطبيعته متلف للمال ، فهو لم يدخر شيئاً ، وفجأة وجد أن الفيض قد غاض ، وهنا بدأ يتنبه إلى قلة نصيبه من الأرزاق وهى المرتبات .

هذا هو الذى حرَّك الناس للفتنة على عثمان ، ولكن تلك الحركة ما كانت لتبلغ المبلغ الذى بلغته لولا ما أصاب قريشاً نفسها من تفكك ، ومع التفكك ضاعت الهيبة ، ومن هنا تجرأ الناس على قريش والخليفة القرشى . ولقد كانت قريش تحكم الناس وتجد عندهم الطاعة والتسليم إلى آخر أيام عمر بن الخطاب ، لأن القرشيين كانوا إلى ذلك الحين قوة معنوية كبرى تنحنى لها جباه أغنى العرب وغير العرب .

وقد روى الطبرى بإسناد مختلط خبراً من فتوح أرمينية يبدو لنا وكأنه رمز على ما نقول ، فقال بعد أن دخل عبد الرحمن بن ربيعة وسراقة بن عمرو بلاد أرمينية ، أن المسلمين اجتازوا الباب من هناك أى باب أرمينية فى جبال آذربيجان ، فتعرض لهم ملك الناحية وكان فارسياً يسمى شهر براز : وسأل قائدهم : ما تريد ؟ قال عبد الرحمن بن ربيعة : أريد بلنجر وهى عاصمة أرمينية ، قال شهر براز : إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب ، قال عبد الرحمن بن ربيعة : لكنَّا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم فى ديارهم ، وتالله إن معنا لأقواماً لو يأذن لنا أميرنا فى الإبعاد لبلغتُ بهم الروم قال : وما هم ؟ قال : أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا فى هذا الأمر ، بِنِيّة ،

كانوا أصحاب حباء وتكرم فى الجاهلية فازداد حباؤهم وتكرمهم ، فلا يزال هذا الأمر دائماً لهم ، ولا يزال النصر لهم حتى يغيرهم من يغلبهم ، وحتى يلفتوا عن حالهم بمن غيّرهم ، فغزا بلنجر غزاة فى زمن عمر لم تئم فيها امرأة ولم ييتم فيها صبى وبلغت خيله فى غزاتها « البيضاء » على رأس مائتى فرسخ من بلنجر . ثم غزا فسلم ، ثم غزا غزوات فى زمن عثمان ، وأصيب عثمان حين تبدل أهل الكوفة فى إمارة عثمان لاستعماله من كان ارتد استصلاحاً لهم[1] فلم يصلحهم ذلك ، وزادهم فساداً أن سادهم مَنْ طلب الدنيا وعضَلوا بعثمان حتى جعل يتمثل :

وكنت وعمراً كالمسمِّن كلبه فَخَدشه أنيابه وأظافره »[2]

أما سر هذا السلطان المعنوى العظيم الذى كان لعمر فهو إخلاصه البالغ للإسلام والمسلمين ، وجمعه قريشاً تحت جناحه وأخذه بحجزها حتى لا تقع بين رجالها الفتنة فتضيع ، والأخبار فى هذا أكثر من أن تُحصى ولَكِنْ ها هنا خبران أسوقهما مما فعل عمر وأبو عبيدة فى عام الرمادة وهو عام ١٨ للهجرة ، وقد أصابت أهل المدينة مجاعة وشدة . قال الطبرى بإسناده « أصابت الناس فى إمارة عمر رضى الله عنه سنة بالمدينة وما حولها فكانت تسفى إذا ريحت [3] تراباً كالرماد ، فسمى ذلك العام عام الرمادة فآلى عمر ألّا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيا الناس من أول الحيا « المطر » ، فكان بذلك حتى أحيا الناس من أول الحيا ، فقدمت السوق عُكة من سمن ووَطْب من لبن فاشتراها غلام لعمر بأربعين درهماً ثم أتى عمر فقال « يا أمير المؤمنين ، قد أبر للّه يمينك وعظم أجرك . قدم السوق وطب من لبن وعُكَّة من سمن فابتعتها بأربعين، فقال عمر : أغليت بهما فتصدق بهما فإنى أكره أن آكل إسرافاً ، وقال عمر : كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يُعنينى ما يمسهم ؟ »[4] .

وإليك الخبر الثانى الذى يعطيك مثالاً آخر بليغاً من علو طبقة القرشيين الذين تولوا أمر الناس بعد رسول الله ﷺ ، وعرفوا كيف يرتفعون بقريش ويؤكدون للناس

(١) يريد مروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن على شاكلته ممن أساءوا إلى عثمان وهبطوا بسمعة قريش .
(٢) الطبرى ، تاريخ ٤/ ١٥٨ .
(٣) أى : تهب عليها إذا هبت الريح .
(٤) الطبرى ، تاريخ ٤/ ٩٨ .

- بخلقهم لا بسلطانهم - أن قريشاً جديرة بقيادة العرب فى نور الإسلام ، وقد عرف رجالها كيف يتمثلون أخلاقيات الإسلام ويضربون المثل العظيم للقيادة الإسلامية الرشيدة ، وبهذا المثال قامت قريش بعد عثرتها وعرفت كيف تستعيد مركزها فى أعين العرب ، قال الطبرى بإسناده : « كتب عمر إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدهم (فى عام الرمادة) فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة عامر بن الجراح فى أربعة آلاف راحلة من طعام ، فولاه قسمتها فيمن حول المدينة ، فلما فرغ ورجع إليه أمر له بأربعة آلاف درهم ، فقال : لا حاجة لى فيها يا أمير المؤمنين ، وإنما أردتُ الله فلا تُدْخِل علىَّ الدنيا ، فقال : خذها ، فلا بأس بذلك إذ لم تطلبه ، فأبى فقال : خذها فإنى قد وَلِيت لرسول الله ﷺ مثل هذا ، فقال لى مثل ما قلت لك ، فقلت له كما قلت لى ، فأعطانى ، فقبل أبو عبيدة ، وانصرف إلى عمله وتتابع الناس واستغنى أهل الحجاز وأُحيوا من أول الحيا »[1] .

بمثل هذا الخلق الرفيع والتهمم بشئون الناس أصبحت قريش إلى آخر خلافة عمر سيدة العرب وقائدة دولة الإسلام الناشئة ، وزاد فى جاه قريش أن معظم قادة الفتح كانوا منها ، فإلى جانب أسماء كبار الفاتحين الأُوَل ، أبى عبيدة عامر بن الجراح ، وخالد بن الوليد ، ويزيد بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، وسعد بن أبى وقاص ، برزت أسماء عبد الله بن عامر بن كريز « من بنى عبد شمس » وعياض بن غنم بن زهير الفهرى ، وعبد الله بن سعد بن أبى السرح ، ونافع بن عبد القيس الفهرى ، ثم ابنه عقبة بن نافع وأضرابهم ممن أثبتوا دون مجال للشك أن قريشاً هى قاعدة العرب ومناط وحدتهم ورمز مجدهم .

وإلى هذه الفترة يرجع تميز قريش على غيرها من قبائل العرب فى القيادة والسياسة والحرب ، ولم يؤكد هذه المعانى أحد كما أكدها عمر بن الخطاب ، فإلى جانب مزاياه العديدة المعروفة للناس تميز عمر بشعور عربى غالب ، فكان يرى أن العرب أياً كانت قبائلهم أهل العز والشرف والسؤدد وقاعدة الإسلام ، وهو فى هذا الاتجاه يسوى بين العرب جميعاً ، فهو الذى أيد المثنى بن حارثة الشيبانى وأشاد به ، وهو الذى اختار أبا

(١) الطبرى ، نفس المصدر والجزء ص٩٨.

عبيد بن مسعود بن عمر الثقفى ، وسعد بن عبيد الأنصارى حليف بنى فزارة لقيادة بعض القوات الذاهبة إلى العراق ، بل جعل أبا عبيد بن مسعود بن عمرو قائداً للجيش .

وعندما خاطبه الناس فى ذلك وقالوا له : أَمِّر عليهم رجلاً من السابقين من المهاجرين والأنصار ، كان جواب عمر : « لا واللّه لا أفعل ، إن اللّه إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو ، فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء ، فأَوْلَى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع ، وأجاب إلى الدعاء ! واللّه لا أُؤمِّر عليهم إلا أولهم انتداباً ، ثم دعا أبا عبيد وسليط (بن قيس) وسعد (بن عبيد الأنصارى حليف بنى فزارة) فقال : أما إنكما لو سبقتماه لوليتكما ولأدركتما بها إلى ما لكما من القدمة . فأمَّر أبا عبيد على الجيش وقال لأبى عبيد : اسمع من أصحاب النبى ﷺ وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف »[1] وبمثل هذا الإنصاف والفهم وروح الأبوة والرياسة ساس عمر الناس ، وتأكدت بعد أبى بكر أهلية قريش للرياسة واستمر علو شأنها ، ولم يتطاول على منافستها أحد ، وكان عمر أيام الرسول شديد العصبية لقريش ، ولكنه عندما تولى الخلافة نسى عصبيته القرشية وانتقل بحماسة إلى العرب جميعاً .

ولكن قريشاً لم تستمر على هذه الخطة ، لأن استمرارها كان يتطلب رجالاً من طراز أبى بكر وعمر ، وكان رجل من هذا الطراز موجوداً وهو على بن أبى طالب ، ولكن التيارات داخل جماعة الشورى التى اختار رجالها عمر بن الخطاب انتهت بالخلافة إلى عثمان بن عفان ، وكان صحابياً جليلاً ومؤمناً عظيماً ، ولكنه لم يكن بطبعه مؤهلاً لقيادة الأمور فى الظروف الصعبة التى تولى فيها ، فالفتوح فى طريقها وقبائل العرب فى حركة دائمة داخل الدولة ، وكانت السيطرة على حركة الفتوح والهجرة الواسعة النطاق تحتاج إلى يقظة بالغة وإدراك دقيق لحقائق المناسبة التى كانت أمة الإسلام تعيشها إذ ذاك ، ولسنا هنا بسبيل نقد أعمال عثمان أو إبداء الرأى فى سياسته وطريقته فى اختيار رجاله وعماله والحكم على تصرفات أولئك الرجال ، ولكننا ننبه

(١) الطبرى ، تاريخ ٣/ ٤٤٥ .

إلى أثر ذلك كله فى ظهور الفتنة فى منتصف خلافته ، ثم اتساع مداها بعد ذلك حتى أدت إلى قتله فى ١٧ ذى الحجة سنة ٣٥هـ/ ١٦ يونيو ٦٥٦م ، وهو حادث بالغ الخطورة والأثر فى مسار تاريخ الإسلام وتاريخ قريش .

ولن ندخل هنا فى تفاصيل ما حدث ، فهذا يخرج عن نطاق هذا البحث من ناحية، ثم إنه يدخل بنا فى مناقشات ومتاهات لابد للتعرض لها من قراءة سليمة مستوفية للنصوص ، وهنا ليس موضع هذه الدراسة ، إنما سيكون موضعها كتابنا عن على بن أبى طالب إذا مدَّ الله فى العمر ويسَّر الأسباب .

والذى يعنينا هنا ونحن نؤرخ لقريش ، هو أن الذى حدث - أياً كان الرأى فيه - أضرَّ بقريش فى جملتها ضرراً بالغاً : أضر بالهاشميين وبالعبشميين كما أضر بالوحدة القرشية لأن قريشاً استمدت قوتها وهيبتها - وعليها قام سلطانها بعد الرسول ﷺ - من وحدتها وظهورها أمام العرب جبهة واحدة تملك القيادة وتسير بها فى الطريق السوى كما حدث أيام أبى بكر وعمر ، فالذى حدث الآن هو أن وحدة قريش تصدعت ، وبصرف النظر عمن كان على حق ومن لم يكن فى الحوادث التى سبقت مقتل عثمان، فإن أمر الخلاف بين عثمان ونفر من الصحابة ، وإنكار هذا النفر لمسلك عثمان أوجد الطريق للكارهين لسيادة قريش من العرب لكى يرفعوا رؤوسهم فى وجهها والجرأة عليها .

وقريش كانت رئيسة العرب بعد الإسلام وحتى لو كانت رياستها سليمة عادلة ومنصفة ، فإن الرياسة فى ذاتها تخلق الخصوم والأعداء وخاصة فى نفوس العرب ، وهم قوم أهل أنفة وكبرياء يعسر عليهم الانصياع بعضهم لبعض ، إذ إن طمع العربى يجعله يشعر أن وجود أية رياسة عليه عدوان على شخصيته وكرامته وهذا أمر شائع فى الجماعات القبلية جميعاً ، حيث تأبى الوحدات القبلية سيادة بعضها على بعض ويحس شيوخها أن مجرد قبولهم لأى صورة من صور رياسة واحد منهم على الباقين فيه عدوان عليهم مهما كان نوع هذه الرياسة ومهما بلغ من عدلها أو استقامتها. وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك فى مقدمته فى حديثه عن العرب أولاً ثم عن البربر ثانياً ،

ولسنا بحاجة إلى ذكر إشارة ابن خلدون فى هذا المقام ، فتلك الحقيقة الخاصة بطبيعة القبائل ورياستها حقيقة مُسلَّم بها فى علمى التاريخ والاجتماع .

وكانت أنظار العرب كلها متجهة لقريش متحفزة لإنكار رياستها إذا وجدت إلى ذلك سبيلاً والدولة بعد ذلك حديثة والنظام جديد واندراج العرب فى نظام سياسى واحد كان شيئاً لم يألفه العرب فى الجاهلية ، وكانت أيسر وجوه التصدع فى صفوف القيادة القرشية كافية لأن تفتح الطريق أمام الكارهين لقريش والمبغضين لرياستها لتحديها ، وكانت المناقشات التى دارت بين عثمان وعِلْية الصحابة ، وما وجهوه إليه من نقد تصل إلى الناس مع ما لا بد منه من تضخيم وتشويه وتحريف ، وإذا كان كبار الصحابة أنفسهم لم يسمحوا لأنفسهم بإطلاع الناس على ما يثور بين رجال القيادة القرشية من خلاف ، فإن رجالاً من كبار الصحابة من غير قريش لم يطيقوا الصبر على ما رأوه مما تصوروه أنه انحراف عن الجادة وتحدثوا به فى أوساط الناس .

ويكفى أن نشير هنا إلى عبد اللّه بن مسعود وعمار بن ياسر وأبى ذر الغفارى، وذلك إلى جانب الكثيرين من الأنصار الذين لم يكونوا راضين عن الوضع أصلاً وهؤلاء جميعاً كان لهم عند العرب قدر ومكانة فهم صحابة أجلاء وهم فى نظر العرب الذين أسلموا عام الوفود أو بعده ، أصحاب سابقة فى الإسلام ولا يَقِلُّون عن قريش مكانة ، فإذا تكلموا فى نقد قريش وسوء تصرف بعض رجالها وما كان من انحراف عثمان فى رأيهم عن الجادة وتركه أهل بيته يتصرفون فى شئون الدولة وأموالها ، فإن الناس يصغون لهم ويرون معهم أن قريشاً لا حقَّ لها فى هذا الانفراد برياسة المسلمين ما دام الخليفة الثالث منهم قد انحرف عن سواء السبيل .

وأسوأ من ذلك بالنسبة لمصير قريش نقد كبار القرشيين بعضهم لبعض واجتهادهم فى إظهار معايب عثمان وأخطائه وخطورة انفراد بنى أمية بقيادة أمة الإسلام ، وهؤلاء النفر من الصحابة قرشيون وغير قرشيين ، والذين تكلموا فى عثمان وآل بيته كانوا فى الحقيقة يُضعفون من شأن قريش جملة ويغرون الناس بها ، ويؤكدون فى أذهانهم أن إمامة الأمة تكون فى الأصلح من المسلمين قرشياً أو غير

قرشى ، وهنا نظن أنه نشأت عبارة « الأئمة من قريش » التى تحولت إلى حديث نبوى نجده مروياً فى معظم الصحاح .

والعبارة فى ذاتها لا يمكن أن تكون حديثاً نبوياً لأن رسول الله ﷺ الذى عانى ما عانى من عناد القيادة القرشية وأنانيتها ، ورأى بنفسه أن غير القرشيين كانوا أسرع فهماً للإسلام وأعمق إيماناً به من القيادة القرشية فى مكة ، ما كان ليقول الأئمة من قريش ، لا على معنى أن الإمامة هى الإمامة الدينية ، أى إمامة الصلاة ، أو الإمامة السياسية . فأما الإمامة الدينية فقد أناب الرسول عن نفسه فى المدينة عند خروجه منها إماماً أنصارياً ، أو رجلاً ضريراً من المهاجرين هو عبد الله بن أم مكتوم، وأما الإمامة بمعنى الرياسة السياسية فقد كان هَمُّ الرسول متجهاً إلى بناء المسلمين أمة وأفراداً بناء داخلياً أى : إيقاظ الضمير والإحساس بفضيلة الأمة ، وفضيلة كل فرد من أفرادها عند كل مسلم ، والقرآن يقصد إلى ذلك فى المكان الأول بتوجيهه الكلام إلى الإنسان تارة وإلى جماعة المؤمنين تارة أخرى ، لأن الغاية الأساسية هى بناء المؤمن الصحيح ، وهو أساس أمة المؤمنين القوية المتماسكة بالإيمان القائمة على وحدة الإيمان المرتبطة بحبل الله المعتصمة به ، والله سبحانه يتكفل بهدايتها إلى الطريق السوى ويُمَكِّنها من اختيار قيادتها الصالحة..

وقد حدث هذا عندما توفى الرسول ﷺ ، فإن الأمة عرفت طريقها واستقر أمرها على قيادة جماعية يرأسها أبو بكر وهو أصلحها لتولى أمورها . وأبو بكر لم يتجه إلى حكم الناس بل اتجه إلى مواصلة السير بالجماعة فى طريق الرسول ﷺ دون نظر إلى رياسة أو مظهر رياسة ، وكان الرأى للأمة أثناء خلافته ، وعلى نفس الطريق وإنما بأسلوب آخر - سار عمر ، فإن عمر لم يكن يحكم الناس ، وإنما كان يضرب المثل ويمثل القدوة . ولم يكن عمر رغم عروبته الظاهرة يتحيز لقريش . بل لما فيه صالح الأمة ، وقد رأينا مثلاً واحداً فى اختياره لعبيد بن مسعود الثقفى للقيادة وتفضيله على السابقين من المهاجرين والأنصار ؛ لأنه كان أسرع منهم انتداباً لنفسه للحرب ، وقد فصَّلنا موقف عمر فى تلك المناسبة .

التصدّع الخطر فى القيادة القرشية :

والذى حدث عند مجىء عثمان كان شيئاً جديداً لم تَرْضَ عنه الأمة ، فلم يعد الخليفة أو الإمام قدوة فى نظر الجميع ، بل أُطلقت شكوك كبيرة حول مَلَكاته وقدراته الإدارية وكان البادئون بالشك قدماء المهاجرين والأنصار ، وهم كانوا فى مجموعهم يمثلون قيادة الأمة على اعتبار أنهم أعرف الناس بطريق رسول الله ﷺ وأقدرهم على السير فيه . أى : أنهم كانوا ممن تستمع الأمة إلى ما يقولون . ولا يهم هنا عدد الذين لم يكونوا راضين عن عثمان وإدارته من هؤلاء ، لأن المهم هو أن القضية طرحت ، والشك فى قدرات القيادة القرشية تطرَّق إلى القلوب وتلقته آذان صاغية من العرب ممن كانوا على شىء من المعرفة بشئون السياسة والحكم من أمثال أزد يمامة وعبد القيس وشيبان وبكر وتغلب وغسان ، وهؤلاء جميعاً دخلوا الإسلام متأخرين سنة تسع للهجرة وربما قبلها بقليل ، ولم يكن لقريش عليهم فضل ولم يكن يبرر طاعتهم لقريش إلا إذا استطاعت قريش أن تثبت لهم أنها أصلح الفئات لقيادة أمة الإسلام . أما الآن وقد تسرب الشك إلى النفوس وتسامع الناس بما يقال من أن الخليفة القرشى عثمان يدير شئون الدولة لصالح بيته ، فإن المناخ السياسى فى الدولة بدأ يتغير ، وسواء أصدقتْ تلك الشائعات أم لم تصدق ، فالمهم أنها أصبحت مطروحة بين الناس ، وأيَّدها نفر من الصحابة ، واعين أم غير واعين .

واستمع إليهم الناس ووجدت عند الكثيرين منهم قبولاً ، والدولة وسياستها كانت أموراً جديدة جداً على العرب جميعاً بمن فيهم القرشيون ، ولم يعرف أهل القيادة والقدرة أن أى كلمة منهم كان لابد لها أن تحدث صدى خطيراً فى أذهان الناس . وعمرو بن العاص مثلاً عندما كان يوجه النقد الشديد لعثمان كان لا يعرف أنه بنقده هذا يمهد لقتل عثمان ، ويكفى أن نضرب هنا مثالاً بموقف خزاعة ، وخزاعة كانت قبيلاً هاماً جداً فى ذلك الحين ، لقد كانت خزاعة قبيلة يمنية الأصول وميولها من أول الأمر كانت يمنية ، وكانت نافرة من قريش ، لأن قريشاً أخرجتها من مكة ، بل أشاع القرشيون فى الجاهلية ما شاءوا من الأقوال للإزراء بخزاعة . وأقوالهم فى عمرو بن عامر بن لحى الخزاعى الذى قيل إنه أول من غيَّر دين إسماعيل ودعا

العرب إلى عبادة الأصنام وأحفاده من بنى قُمير بن حُبْشية بن سلول ، وابنه أبو غبشان حُلَيِّل بن حبشية بن سلول الذى يقال إنه باع مفتاح الكعبة من قصى بن كلاب بزِقٍّ خمر . كل هذه الأقوال التى كانت تطلقها قريش فى مجالسها عن خزاعة كانت تُحدث شدوخاً عميقة فى نفوس الخزاعيين.

خزاعة هذه التى خاصمت قريشاً بسبب ما فعلته فيها أيام قصى بن كلاب ، كسبها عبد المطلب بن هاشم إلى جانبه وثبتت بعد ذلك مع اهاشميين وقيل : إن عبد المطلب عقد معهم حلفاً وكتب كتاباً ، ثم انضمت خزاعة إلى الإسلام وأخلصت لله ورسوله وانضم الفريق الأقوى منها ، فريق بريدة بن الحصيب الأسلمى إلى رسول الله وصار من علية أصحابه ، وكان الخزاعيون من بنى كعب بن عمرو « عيبة نصح » لرسول الله ، وهم الذين دخلوا فى حلف أمة الإسلام بعد صلح الحديبية فى حين انضم بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة إلى قريش ، وكان عدوان هؤلاء على بنى كعب الخزاعيين هو الذى حرَّك مسير رسول الله ﷺ لفتح مكة ، وفى مسيره إليها لقيه بنو كعب عند قديد ، وأظهروا ما عُرِفوا به من الولاء فاعتبرهم جميعاً مهاجرين أى من قومه سواء هاجروا إلى المدينة أم لزموا مواضعهم ، وبعد فتح مكة دخل فريق عدى ابن عمرو بن عامر بن لحى بزعامة بديل بن ورقاء فى الإسلام .

وطوال أيام الرسول ﷺ فى المدينة كان بريدة بن الحصيب الأسلمى من أقرب الناس إلى على بن أبى طالب الذى كان يمثل الفرع الهاشمى بين الصحابة ، وكان صاحب لوائه فى مسيرته إلى اليمن ، وعندما صارت الخلافة لعثمان خرج بريدة بن الحصيب وقومه إلى البصرة ، وكان لهم بعد ذلك دور عظيم فى تاريخ خراسان .

هؤلاء الخزاعيون لم يرضهم عثمان ولا سياسته ، وما شاع وذاع بين العرب من تحكيمه آل بيته من بنى أمية فى رقاب المسلمين وهم معذورون إذا صدَّقوا ما ترامى إليهم وساء ظنهم فى قيادة قريش الأموية ، وكان معظم أهل الأخماس من أهل البصرة تبعاً لرأى خزاعة وسيدها بريدة بن الحصيب ، وعندما رحل بريدة ومن معه إلى خراسان كانوا قد نفضوا أيديهم من قريش بنى أمية ، وإن ظل ولاؤهم لقريش بنى هاشم ، وسيكون لذلك أبعد الأثر فى قيام الدعوة اهاشمية التى تحولت إلى عباسية على ما هو معروف .

وهذا ما كان من شأن خزاعة - نتيجة لاستبداد بنى أمية - على عظيم صلتها بقريش ، فإن خزاعة مهما كان من أمرها هى حجازية ، فما بالنا بتميم وغطفان وهوازن وبقية فروع قيس عيلان بن مضر من عرب وأعاريب ، وكلهم كانوا منكرين لمكانة قريش بين العرب ثم سيادتها للعرب برسول الله ﷺ ، بل ما بالنا بموقف من لم يكونوا مُضَريين أصلاً مثل الأزد وبقية قبائل اليمن ممن ظلوا فى منازلهم فى اليمن ونواحى الجنوب أو هاجروا منها إلى الحجاز وباديتى الشام والعراق ونجد ؟

هؤلاء جميعاً - وعلى درجة متفاوتة - أحسوا بتصدع جبهة قريش ونزعوا ثقتهم منها ، والحقيقة هى أن جبهة قريش تصدعت أثناء خلافة عثمان ، وإذا كانت قريش هى قيادة العرب أو صفوتها القائدة فإن التصدع هنا تصدع فى القيادة والرأس وهو أخطر أشكال التصدع فى الرياسات والقيادات ، وتصدع بناء الدول بالتالى . وقد تحدثنا بتفصيل فى ذلك فى كتابنا الحضارة فى مجال عرضنا لآراء المؤرخ المعاصر أرنولد توينبى عندما تعرض فى دراسته المشهورة للتاريخ لموضوع تصدع الأمم والجماعات والدول وتدهورها [1] ، وهو الذى يسميه توينبى بتصدع الصفوة القائدة وتصدع جبهة قريش وهى الصفوة القائدة والذى أدى بالضرورة إلى تصدع جبهة العرب ، وهم كانوا الفئة القائدة فى أمة الإسلام ، وأعقب ذلك بدايات تصدع أمة الإسلام جملة . وفتنة عثمان كانت بداية الصدع الخطير فى بناء أمة الإسلام ، وهو تصدع لم يرأبه أحد قط بل تزايد مع الزمن ، وكانت أولى ضحاياه قريش نفسها : هى التى انشقت على نفسها ومهَّدت الطريق بذلك لضياع أمرها جملة .

ونقف لحظة عند ما ذكرناه وما يسمى عادة بفتنة عثمان ، فإن دارس التاريخ الإسلامى يعرفها ويراها فيما كان من قيام الناس على عثمان وقتله ، ثم ما كان من الحروب الأهلية بين على ومعاوية ، التى انتهت بقيام الدولة الأموية . وقيامها كان صدعاً هائلاً فى جبهة قريش وشدخاً خطيراً فى بناء أمة العرب ، لأنه أعزَّ فريقاً من قريش والعرب ، وأذل فريقاً ، وإذا كانت أمة العرب إذ ذاك من القوة بحيث لم تشعر شعوراً عميقاً بالكسر الذى أصابها فإنها لم تلبث أن شعرت به عندما هدأ حماس

(١) انظر كتابنا : الحضارة ، الكويت ١٩٧٧ ص٢٥٢ وما يليها

الفتوح وتناثر العرب فى نواحى دولة الإسلام الكبرى . هنا وبعد سقوط دولة بنى أمية لم يكن فى الحقيقة قد بقى لقريش إلا الاسم العظيم والجاه المنمق . أما قريش القائدة ، قريش الصفوة فقد تلاشت مع الأيام .

قُريش تهدم قُريشا :

وفى الصراع السياسى المحتدم بين بنى أمية وخصومهم ، أساءت قريش إلى نفسها أضعاف ما أساء إليها غيرها ، فإن السياسة أعمت عيون بنى أمية تماماً وأنستهم قرشيتهم فكانوا شراً على قريش من ألدِّ أعدائها ، ولننظر مثلاً فيما فعله يزيد بن معاوية ورجاله للقضاء على عبد الله بن الزبير ، ومن انضم إليه من أهل الحجاز ومكة والمدينة ، وفيهم قرشيون كثيرون ، فقد أحب يزيد أن يبعث جيشاً على رأسه عمرو ابن سعيد بن العاص وكان عامله على الحجاز ثم عزله وأراد الآن أن يعيده فقال :

«قد كنت ضبطت لك البلاد ، وأحكمت لك الأمور ، فأما الآن إذ صارت إنما هى دماء قريش تهراق بالصعيد ، فلا أحب أن أكون أنا أتولى ذلك ، يتولاها منهم من هو أبعد منهم منى قال : فبعثنى (يزيد) بذلك الكتاب إلى مسلم بن عقبة المرى - وهو شيخ كبير ضعيف مريض - فدفعت إليه الكتاب فقرأه وسألنى عن الخبر فأخبرته ، فقال لى مثل مقالة يزيد : أما يكون بنو أمية ومواليهم وأنصارهم بالمدينة ألف رجل ! قال : قلت : بلى يكونون قال : فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار ! ليس هؤلاء بأهل أن يُنصروا حتى يجهدوا أنفسهم فى جهاد عدوهم وعز سلطانهم ، ثم جاء حتى دخل على يزيد فقال : يا أمير المؤمنين لا تنصر هؤلاء فهم الأذلاء ، دعهم يا أمير المؤمنين حتى يُجْهِدوا أنفسهم فى جهاد عدوهم وعز سلطانهم ، ويستبين لك من يقاتل منهم على طاعتك ويصبر عليها أو يستسلم . قال : ويحك إنه لا خير فى العيش بعدهم فاخرج فأنبئنى نبأك ، فخرج مناديه فنادى : سيروا إلى الحجاز على أخذ أعطياتكم كملاً ومعونة مائة دينار توضع فى يد الرجل من ساعته ، فانتدب لذلك اثنى عشر ألف رجل [1] .

---

(١) الطبرى ٥/ ٤٨٢ - ٤٨٣ وما بعدها .

ويزيد بن معاوية بن أبى سفيان القرشى يرسل هذا الجيش للقضاء على من خلع طاعته من أهل المدينة وعلى رأسهم عبد الله بن حنظلة الغسيل ، فحنظلة الغسيل هو ابن حنظلة بن عبد عمرو أبى عامر الفاسق ، وكان حنظلة الغسيل هذا من خيرة المسلمين على خلاف أبيه أبى عامر الفاسق من بنى عمرو بن عوف الأوسيين ، وقد استشهد حنظلة فى أُحُد وقيل : إن الملائكة غسَّلته فسُمى بحنظلة الغسيل ، وابنه عبد الله هذا قاد أهل المدينة فى وثوبهم على يزيد بن معاوية سنة ٦٣هجرية ، فوثبوا على عثمان بن محمد بن أبى سفيان ومن معهم فى المدينة من بنى أمية ، فحاصرهم الناس فى دار مروان بن الحكم « حصاراً خفيفاً »

والآن يريد أن يعاقب أهل المدينة فلا يجد من يختاره ليقوم بذلك الآن إلا مسلم بن عقبة بن رباح وهو من بنى مرة بن سعد بن ذبيان ، وذبيان من أعاريب نجد من قيس عيلان بن مضر ، ويزيد لا يأنف أن يقول له هذا المرى الذبيانى أن المحاصرين من بنى أمية فى المدينة « هؤلاء هم الأذلاء » مع أن ذبيان كانت من أشد قبائل أعاريب نجد حسداً لقريش وعناداً للإسلام ، وهذا الرجل سار فى ناس كثيرين من أعاريب نجد من عبس وذبيان وغطفان ليفتكوا بأهل المدينة من الأنصار ومن انضم إليهم من القرشيين فى الثورة على يزيد ، ومسلم بن عقبة المرى بعد أن قتل عبدالله بن حنظلة وقطع رؤوس من معه من الأنصار دعا الناس للبيعة على أنهم خَوَلٌ ليزيد بن معاوية يحكم فى دمائهم وأموالهم ما شاء [1] يزيد ينسى هنا أنه يذل الأنصار ونفراً من قريش وهم قومه .

ومسلم بن عقبة المرى الذبيانى كان يحارب أهل المدينة ومكة وفى نفسه مرارة بالغة على قريش ، ومن المؤكد أنه كان يعبر عن حقد القبائل غير القرشية على قريش . ومن أوضح الدلائل على ذلك هذا الخبر الذى يرويه الطبرى عن عوانة بن عبد الحكم قال: وأما عوانة بن الحكم فذكر أن مسلم بن عقبة بعد أن انتصر على أهل المدينة «بعث عمرو بن محرز الأشجعى (من أشجع بن غطفان) فأتاه بمعقل بن سنان (القرشى) فقال له مسلم : مرحباً بأبى محمد : أراك عطشان قال : أجل . قال : شُوبوا له عسلاً

(١) الطبرى ٥/ ٤٩٥ .

بالثلج الذى حملتموه معنا - وكان له صديقاً قبل ذلك - فشابوه له فلما شرب معقل قال له : سقاك الله من شراب الجنة ، فقال له مسلم : أما والله لا تشرب بعدها شراباً أبداً حتى تشرب من شراب الحميم . قال : أُنشدك الله والرحم . فقال له مسلم : أنت الذى لقيتنى بطبرية ليلة خرجت من عند يزيد فقلت : سرنا شهراً ورجعنا من عند يزيد صفراً ! نرجع إلى المدينة فنخلع هذا الفاسق ، ونبايع لرجل من أبناء المهاجرين ! فيم غطفان وأشجع من الخلع والخلافة، إنِّى آليت بيمينى لا ألقاك فى حرب أقدر فيه على ضرب عنقك إلا فعلت ، ثم أمر فقُتِل »[1] .

فكأن مسلم بن عقبة المرى الذبيانى ، وهو من ذبيان من قبائل أعاريب نجد الحاقدة على قريش ، كان يشتد على قريش لأن بعض القرشيين كانوا يرون أن أعاريب غطفان وأشجع ومن إليها لا دخل لهم فى شئون السياسة وليس لهم أن يتدخلوا فى شئون تولية الخلفاء وعزلهم ، فهذا شأن قريش وحدها .

وإليك برهاناً على حقد مسلم بن عقبة المرى على قريش : قال هشام (بن السائب الكلبى) حدثنى عوانة (بن الحكم) قال : دعا الناس مسلم بن عقبة بقباء إلى البيعة (ليزيد) وطلب الأمان لرجلين فى قريش : ليزيد بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، ومحمد بن أبى الجهم بن حذيفة العدوى (من بنى عدى قوم عمر بن الخطاب) فقال : بايعا . فقال القرشيان : نبايعك على كتابِ الله وسنة نبيه ، فقال : لا والله لا أقيلكم هذا أبداً . فقدّمهما فضرب أعناقهما . فقال له مروان : سبحان الله أتقتل رجلين من قريش أتيا ليُؤَمِّنا فضربتَ أعناقهما . فنخس بالقضيب فى خاصرته ثم قال : وأنت والله لو قلت بمقالتهما ما رأيتَ السماء إلا برقة[2] . ومروان هذا هو مروان بن الحكم سيد بنى مروان وبنى أمية كلها ، يخاطبه هذا المرى الذبيانى بهذه الجرأة التى لا تخلو من احتقار .

بل هناك ما هو أدلُّ من ذلك على حقد ذلك الرجل على قريش طُراً ، وإليك هذا الخبر يرويه الطبرى : « قال هشام : وذكر عوانة أن فيمن خرج عمرو بن عثمان لم يكن

---

(١) الطبرى ٥/ ٤٩٢ - ٤٩٣ .

(٢) الطبرى ٥/ ٤٩١ - ٤٩٢ : يريد ما رأيتَ السماء إلا طرفة عين .

فيمن خرج من بنى أمية (للقاء مسلم فى المدينة) وأنه أتى به يومئذ إلى مسلم بن عقبة ، فقال : يا أهل الشام تعرفون من هذا ؟ قالوا : لا ، قال : هذا الخبيث بن الطيب ، هذا عمرو بن عثمان بن عفان ابن أمير المؤمنين ، هيه يا عمرو ! إذا ظهر أهل المدينة قلتَ : أنا رجل منكم ، وإن ظهر أهل الشام قلت : أنا ابن أمير المؤمنين عثمان ابن عفان فأمر به فنُتفت لحيته . ثم قال : يا أهل الشام ، إن أم هذا كانت تُدْخل الجُعل فى فِيهَا . ثم تقول : يا أمير المؤمنين حَاجَيْتُك ما فى فمى ؟ وفى فمها ما ساءها وناءها ، فخلى سبيلها ، وكانت أمه من دوس »[1] .

وبعد وقفة الحرة فى ٢٨ ذى الحجة ٦٣هـ واستسلام المدينة وإذلال أهلها أنصاراً ومهاجرين ، اتجه مسلم بن عقبة إلى مكة ليستولى عليها ويقضى على عبد الله بن الزبير الذى كان يسميه الكافر ، توفى فى المحرم سنة ٦٤هـ فدعا الحصين بن نمير السكونى (والسكون من كندة) « فقال له : يا ابن برذعة الحمار ، أما والله لو كان هذا الأمر إلىَّ ما وليتُك هذا الجند ، ولكن أمير المؤمنين ولاك بعدى ، وليس لأمر أمير المؤمنين مردٌّ. خذ عنى أربعاً : أسرع السير ، وعَجِّل الوقاع ، وعمّ الأخبار ، ولا تُمكِّن قرشياً من أذنك ، ثم إنه مات فدُفِن بقفا المشلل »[2] .

وهنا يتجلى لنا سبب كراهة مسلم بن عقبة المرى وخليفته لأهل المدينة ومكة ، فهى فى لبابها عداوة لقريش ، إنها مظهر من مظاهر حقد أعاريب قبائل قيس عيلان ابن مضر على قريش سليلة الياس بن مضر ، وإذا أضفنا إلى ذلك أن معاوية بن أبى سفيان هو الذى أوصى ابنه يزيد باستخدام مسلم بن عقبة إذا عصاه أهل الحجاز تبيَّنا كيف أن جشع السياسة استولى على عقل معاوية بن أبى سفيان وجعله لا يحفل لمصير قريش ليحافظ على عرشه لنفسه ولابنه ، فلو قلنا هنا إن قريشاً هى التى هدمت قريشاً ما جاوزنا الحقيقة ، وإنه لمن العجيب أن تحافظ قريش الكافرة فى الجاهلية على وحدتها وتسير فى طريقها قوة واحدة مجتمعة ، ثم تجىء الخلافة بعد ذلك وما تعنيه من قوة سياسية ومال وجاه ، فتعمى عيون القرشيين وينتابهم هذا السعار الذى رأينا بعض

(١) الطبرى ٥/ ٤٩٤ .
(٢) الطبرى ٥/ ٤٩٦ .

أطرافه . والأمر هنا لا يقتصر على بنى أمية وما فعلته ببنى هاشم ، بل إن الذى قاد الجيش الذى قتل الحسين بن على وآله كان يقوده عمر بن سعد بن أبى وقاص وهو قرشى ، والحسين وآله الذين استشهدوا فى يوم كربلاء كانوا قرشيين ، استشهدوا وماتوا على أيدى قرشيين بسبب السياسة ومطامعها .

وسنرى شبه ذلك فى تصرف إبراهيم الإمام بن على بن عبد الله بن عباس الذى دبَّر مع أبى مسلم أمر نقل الدعوة من بنى على إلى بنى العباس ، فقد أوصاه بأن يتحاشى المضريين جميعاً من أهل خراسان ، وأن يعتمد على الأزد والموالى ، وهنا أيضاً نرى كيف أن قريشاً هدمت قريشاً .

انتقال وَلاء المسلمين إلَى قريش بَنى هَاشِم

وَنهَاية قُريش بَنى عَبد شمس :

إذن : فإننا نستطيع أن نقول - وبدون دخول فى التفاصيل - : إن فتنة عثمان كانت بداية النهاية بالنسبة لسيادة قريش ، حقاً إن دولة بنى أمية قامت واستمرت معها سيادة قريش فى عالم الإسلام ، ولكن بنى أمية لم يكونوا كل قريش ، أما بقية قريش ومعها بقية أمة الإسلام فقد استبد بها الضيق ببنى أمية ، وما زال الضيق يتزايد حتى كانت الثورة العباسية ، وهى كانت من ناحية القيادة ثورة قرشية ، أما من حيث تكوين صفوفها وطبيعة الغالبية العظمى ممن حملوا لواءها فقد كانت ثورة على قريش كلها وحرباً على قيادتها لدولة الإسلام ، وليس بغريب والحالة هذه أن نجد موقف العرب والمسلمين من بنى أمية وسيادتهم يعود بذاكرة المسلمين وعواطفهم إلى موقف الجانب الفاضل من قريش - جانب حلف الفضول - من الجانب الطامح والطامع من قريش الذين كان يمثلهم بنو عبد شمس وبنو مخزوم وهم جماعة الأحلاف أو لعقة الدم ، فكأن الصَّدع القديم فى صفوف قريش الجاهلية قد عاد إلى الظهور فى قريش الإسلام، ولكن التصدع هنا كان عميقاً واسع الشُّقة لأن موضوع الخلاف بين الجانبين فى الجاهلية كان يسيراً هيناً وهو سيادة مكة ، أما الآن فإن موضوعه سيادة دولة الإسلام .

وإذا كانت أمة الإسلام فى هذا الصراع الجديد لم تقف وراء بنى هاشم وقوفاً واضحاً صريحاً أول الأمر حتى مقتل على بن أبى طالب ، فقد تجمعت القلوب كلها إلى جانب بيت على وبنى هاشم جملة بعد مصرعه الأثيم ، وهذه النهاية الحزينة هى التى جمعت القلوب حول أبناء على ، وبان بوضوح أن قريشاً تتصدع ، خاصة وأن مواقف بعض كبار الصحابة من القرشيين من أمثال الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله زعزعت فى أذهان الناس الصورة الجميلة التى نشأت عن سياسة أبى بكر وعمر ، ثم قتل الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله فى صراع سياسى صريح على السلطان وهما يقاتلان زعيماً صحابياً قرشياً ثالثاً هو على بن أبى طالب ، ثم استشهد على بن أبى طالب وبقى معاوية بن أبى سفيان سيد الموقف ، فالتقط الخلافة وكأنها هدية سِيقَتْ إليه .

وقد تسنم معاوية ذروة الخلافة غير واثق من نفسه أول الأمر وتركته الأمة يستقر ويثبت دعائم سلطانه لا تسليماً له ، بل رغبة فى المحافظة على وحدة الأمة التى تصدعت وهددتها الأخطار . فاستمرأ معاوية المرعى وتحول إلى حاكم مستبد وتعدى هو ورجاله على الأموال والأبشار وأخاف الأمة وظهر فى نظرها فى مظهر الطاغية المستبد ، وإذا كان معاوية قد مثَّل إذ ذاك زعامة قريش فقد خاب ظن الناس فى هذه الزعامة ، وكانت تلك هى أقوى ضربة أصابت زعامة قريش ، فقد نزع الناسُ ثقتهم منها وإن ظلت الآمال معلقة بالجانب المنهزم من قريش جانب الهاشميين .

ثم كانت واقعة كربلاء أيام يزيد واستشهد جماعة من أهل البيت على رأسهم الحسين بن على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء على يد رجال يزيد بن معاوية سليل بيت عبد شمس ، وقد كان بيت على بن أبى طالب قرشياً ولكنه كان شيئاً آخر أعظم من ذلك فى نظر الأمة ، إنهم آل البيت ، آل بيت رسول الله ﷺ ، وآل بيت كل مسلم ، فإن العدوان عليهم كان عدواناً على كل مسلم على حدة ، وهو عدوان على عترة الرسول ﷺ ، وهذا العدوان قد تم على يد الرياسة السياسية القرشية وتم على صورة لم تكن لتخطر قط ببال مسلم ، وقريش فى الجاهلية وفى عنفوان عدائها للإسلام لم تجرؤ على أن تمس رسول الله ﷺ بأذىً يُذكر ، ولكن بنى أمية القرشيين المسلمين

أقدموا على ما لم يُقْدم عليه أبو جهل الكافر ، فلا عجب إن تلاشت هيبة قريش من نفوس الناس وعادت إلى أذهان النابهين من أفراد الأمة ذكريات موقف الغالبية من الزعامة القرشية من على بن أبى طالب وقوله إن قريشاً تكرهنى ، فانفضَّت القلوب من حول الزعامة القرشية الأموية والتفت حول الهاشميين لا على أنهم من قريش ، بل على أنهم عترة الرسول وأهل بيته ورمز للمظلومين من رجال أمة الإسلام .

وقد ارتبطت بالزعامة القرشية الأموية مظالم وبشاعات أخرى زادت أمة الإسلام نفوراً منها ، فكان استشهاد الحسين رضى الله تعالى عنه فى العاشر من المحرم سنة ٦٣هـ وغزو المدينة على يد رجل من ذبيان كاره لقريش ورياستها ، وقد رأينا ماذا فعل هذا الرجل بالأنصار والقرشيين بما فيهم أمويون ، ثم حصار مكة على يد رجل من السَّكُون من كندة ، وكل هذا كان بأمر الخليفة الأموى القرشى وكانت موقعة الحرَّة ومصارع أجلاء الصحابة من الأنصار ونفر من المهاجرين ، واقتحم جند بنى أمية مدينة الرسول ﷺ وقتلوا وسَبَوْا واستهانوا بحرمة الكعبة ، فكأن قريشاً الوثنية أدركت فى ذلك اليوم من الإسلام ما لم تدركه من المدينة يوم أُحُد .

وتفاصيل هذه الأخبار كلها واردة عند الطبرى وغيره بتفاصيل كثيرة ، وليس إلى الشك سبيل فى أن هذه الأحداث أياً كانت الدوافع إليها كانت كلها بعيدة الأثر عميقة الشدوخ فى تاريخ الإسلام كله . فاستشهاد الحسين رضى الله عنه كان المولد الحقيقى لحركة الشيعة ، فما من حادث نزل بآل البيت كان أوجع للمسلمين من ذلك الخطب الجليل ، وما من مسلم إلا أصيب فى صميم نفسه فى ذلك اليوم فانعقدت على أثر هذه الجريمة عقدة الشيعة وأصبح لديها سبب واضح ملموس ، وكافٍ لجمع القلوب وكسب الأنصار ، لأن العدوان على الحسين وآله على النحو البشع الذى وقع به كان صرخة الثورة على الحكم الأموى ، لأن المسلمين إذا سكتوا على ذلك استشرى الشر وعَمَّ البلاء فلم يَنْجُ منه مسلم وارتبطت هذه الفعلة البشعة بأسماء قادة عرب من قريش، فإن الخليفة الذى تمت بأمره قرشى وعبيد الله بن زياد الذى قام بالتنفيذ منسوب إلى قريش وإلى بيت السفيانيين من بنى أمية ، وكان قائد الجيش الذى فتك بالحسين عمر بن سعد بن أبى وقاص قرشى وهو ابن واحد من أَجَلِّ الصحابة . كان

هؤلاء هم الذين مثَّلوا السلطان القرشى إذ ذاك ، فقد حلت تبعة الجريمة كلها على قريش وكان المصابون فيها من قريش أيضاً .

ولن ندخل فى تفاصيل تلك الحادثات الشنيعات ، فكلها أياً كان نصيب الروايات التى أتتنا بخبرها من الصحة أو المبالغة فإنها كلها تشين قريشاً وتدل على أن قريشاً بالفعل لم تحسن قيادة العرب ، فقد انحرفت عن الطريق لأول محنة واختبار . والكلام هنا لا ينصب على بنى أمية بل على العرب جميعاً فى قيادة قريش لأن الأمور إذا كانت قد صارت إلى بنى أمية ثم إلى يزيد بن معاوية منهم ، فهذا كان نتيجة تصرف قريش ورأيها ، فمن قريش كان عثمان ، وقريش كانت تستطيع حماية عثمان لو أرادت ، وقريش هى التى أيَّدت أول الأمر اختيار على بن أبى طالب ، وقريش هى التى اختلفت حوله والناس لها فى ذلك كله لقريش تبع ، وعندما كان رأسَ قريش أبو بكر رشدت ورشد الناس معها ، وعندما كان رأسها عمر رشدت وهُديت ، ولكن قريشاً فى جملتها كانت متجهة اتجاهاً ظاهراً نحو السلطان ، وتلك كانت تركة السقيفة .

فإذا كان أبو بكر وعمر قد استطاعا أن يُغلِّبا الدين على الدنيا فى حكومتيهما فإن بعض أهل الشورى لم يكن منهم من قوة العزم والزهد فى الدنيا ما يُمكِّنهم من أن يكونوا شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين ، ولقد كانوا حقاً خيرة المسلمين من قريش وكان فيهم من يستطيع أن يسير فى الأمة بهدى الرسول ، ولكنهم مالوا إلى غير ذلك قصداً وهم يعلمون ، ونحن هنا لا نقول رأياً بل نحكم بالواقع والنتائج ، لأن الأمور إذا كانت قد سارت فى طريق الوبال ، فإن الذين اتخذوا القرار فى اجتماع الشورى كان يمكن أن يكونوا قد جانبهم الصواب عند اتخاذه ، وإلا فكيف سارت الأمور فى هذا الاتجاه الخطر إذا كانوا قد اتخذوا القرار عن تقدير سليم لمسئوليتهم، ونحن نكتب مثل هذا التاريخ لندلّ المسلمين على ما يمكن أن يكونوا قد وقعوا فيه من خطأ لعلهم ينتفعون بما يقرأون ، وإذا كنا نكتبه لمجرد التماس الأعذار لمن تقع عليهم المسئولية ، فإننا لن نرشد بعد ذلك أبداً . وليس من المعقول أن تقع الأمة كلها فى هذا الشر ثم لا يكون هناك مسئول إلا أن تكون لعنة من الله قد قُدِّرت علينا ، وحاشا لله أن يكون ذلك ، فنحن بعد أمة الإسلام وأمة الله وأَوْلَى الناس بالرحمة إذا كنا نستحقها .

وإذا أردت أن تستبين وجه الحق فيما نقول فإننى أضرب مثلاً واحداً من الواقع ، فإننا إذا كنا لا نعلم على وجه الحق ماذا دار فى اجتماع الستة ، فإن لدينا حادثاً نعرفه ويمكننا الاستفادة منه ، فقد كان سعد بن أبى وقاص أحد الستة ، وقد ألقى بصوته فى الناحية التى ارتضاها ، ثم كان ابنه عمر بن سعد بن أبى وقاص من قادة بنى أمية ، وعبيد الله بن زياد عندما أراد أن يُسيِّره لقتل الحسين وآله بدأ فأقامه عاملاً على الرَّى ، وهى ولاية واسعة غنية جنوبى بحر قزوين عُرِفت كذلك باسم طبرستان ، وفى مكان مدينة الرى تقوم اليوم طهران .

فلما صار عمر بن سعد بن أبى وقاص صاحب هذه الولاية وتعلق قلبه بما سيناله فيها من خير ورزق ، أمره عبيد الله بن زياد بأن يمضى بأربعة آلاف للقاء الحسين ومن كان معه من آل البيت وأنصارهم وهم لا يزيدون على مائة مقاتل ، وأراد عمر بن سعد بن أبى وقاص أن يعفيه عبيد الله بن زياد من محنة قتل الحسين ، فقال له عبيد الله: على أن ترد لنا عهدنا أى أن تتنازل عن ولاية الرى ، أى أنه خيَّره بين الولاية مع الجريمة أو تجنُّب الجريمة ولا ولاية . وهنا نجد هذا الرجل مُحيّراً بين الدين والدنيا ، وبين الضمير والكسب ، وأخيراً زلَّتْ به نفسه إلى الدنيا عندما رأى إصرار عبيد الله ابن زياد ، يقول الطبرى راوياً عن أبى مخنف : « فلما رآه قد لَجَّ قال : فإنى سائر قال : فأقبل فى أربعة آلاف حتى نزل بالحسين من الغد من يوم نزل الحسين نينوى »[1] غير بعيد من موضع كربلاء .

فهذه صورة من الواقع تُريكَ حقيقة مواقف بعض هؤلاء الرجال وتوزع أنفسهم بين الدين والدنيا ، وقد يكون شعورهم بهذا التوزع قليلاً لأنهم جميعاً كانوا يحسبون أنهم على بينة من أمرهم ، أو أنهم كانوا إلى جانب الحق وهم فى الحقيقة بعيدون عنه . ونادراً ما كانوا يدركون ذلك أو يعترفون به . وإن الإنسان ليدهش كيف كان القوم جميعاً يحسبون أنفسهم على الحق ويستعينون بالله فى أمورهم ، حتى الذين ذهبوا لقتل الحسين كانوا يتحدثون عن التقى والإيمان ويسألون الله التوفيق فيما هم بسبيله ، وهذه

---

(١) انظر : التفاصيل عند الطبرى : ٥/ ٤٠٩ وما بعدها .
أما نينوى فقد تكون حدودها كانت تصل حينئذ إلى كربلاء وإلا فنينوى فى الموصل وكربلاء فى النجف .

حالة من خداع النفس لا تكاد تصدق . ثم نجىء نحن بعد ثلاثة عشر قرناً من هذه الأحداث فنتعصب لجانب دون جانب ونقطع بأن الحق كله كان هنا ، وأن الباطل كله كان هناك ، وهو موقف فيه أيضاً الكثير من خداع النفس أو التماس السلامة ، ولكنه لا يحترم الحقيقة التاريخية ولا يعين القارىء على الرؤية الواضحة وبدون رؤية واضحة لا تاريخ جدير بأن يسمى تاريخاً .

والذى يستوقف النظر ويدعو إلى العجب أن قريشاً التى حسبت الإسلام سياسة أول الأمر ، فأحجمت عن الدخول فيه كما رأينا فى حالة أبى جهل وأصحابه ، لم يعبر موقفها هذا بعد دخوله . فقد جهد الرسول ﷺ طوال الفترة المكية فى إقناعهم بأنه ليس طالب مُلْك أو سلطان سياسى أو مال ، وإنما هو داع إلى هداية ، فأصروا على موقفهم وكان هذا فراق ما بينهم وبينه حتى هجرته ، فلما أنشأ الرسول الكريم أمته فى المدينة حرص على أن يجعلها بناءً دينياً أخلاقياً معنوياً ، جانب السياسة والكسب المادى فيه قليل ، وهو حتى بعد أن أدرك النصر المؤزر ، وتم له فتح مكة وأتته القبائل طائعة مسلمة لم يغير الأمر من دين إلى سياسة ، وفى كل تصرف من تصرفاته ظل دائماً الداعى إلى الله بإذنه ، البشير النذير والسراج المنير .

وانظر إليه فى مكة بعد فتحها تر فيه النبى المرسل ولا ترى فيه الرئيس الدنيوى قط ، وأصحابنا الذين يتحدثون عن محمد رئيس الدولة يُشبهون أولئك القرشيين فى تصورهم السياسى فى دعوة محمد ، ويستدل بعضهم على أن محمداً أقام دولة الإسلام بأنه كان له صلوات الله عليه « عمال » على مكة واليمن واليمامة والبحرين مثلاً ، ولفظ عامل هنا يؤخذ بمعناه الذى كان له بعد الرسول وهو الحاكم أو الوالى ، والحقيقة أن العامل أيام الرسول هو العامل على الصدقات أى المشرف على إخراج الناس إياها المتقبل لما يخص الله ورسوله والجماعة منها ، وكذلك ما يخص العاملين أو العمال من الصدقات وهو جد قليل ، فعمال محمد صلوات الله عليه لم يكونوا حكاماً .

وأوضح مثل لذلك هو عتاب بن أسيد الذى أقامه على مكة وهو ابن أبى العيص ابن أمية بن عبد شمس ولم يكن حاكماً على مكة وإنما مجرد عامل على صدقات أهلها ،

ولم يكن لديه أى تكليف سياسى حتى إنه عندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وارتجت مكة وتفاقمت حركة المتنبئين وأهل الردة لم يقم عتاب بأى دور سياسى إذ لم تكن له وظيفة سياسية ، وإنما قام بذلك رؤساء قريش وسادتها الحقيقيون بعد أن أسلموا وأعلنوا أنهم يقفون إلى جانب الأمة وأبى بكر ، ولم يحفل أحد منهم بعتاب أو يُقِمْ له وزناً ، بل لم يطالبه أبو بكر بأى دور سياسى . وعندما توافد كبار القرشيين على أبى بكر ليشتركوا فى حروب أهل الردة لم يتحرك عتاب ولا ساءله أبو بكر فى ذلك ، بل تركه على عمل الصدقة حتى مات أبو بكر وعندما قام أهل الردة لم يَعْتَدِ أحد منهم على المصدقين أو العمال ، لأنهم لم يكونوا ولاة ولا حكاماً ، وأبو بكر نفسه لم يكتب إلى أحد منهم كتاباً يكلفه فيه بأى عمل سياسى أو عسكرى .

وذلك كله ناتج من أن الرسول فى إنشائه الأمة لم يجعلها قط دولة ، ولم يحولها من أمة الإيمان إلى دولة السلطان ، لأن مناط قوة الأمة فى إيمانها وتآخيها وتمسكها بحبل الله وعروته الوثقى التى لا انفصام لها ، فكل فرد من أفراد الأمة خادم لهذا المثل الأعلى ، ورسول الله كان يُؤمِّر من يشاء من أصحابه على سراياه وبعوثه ، فإذا انتهت السرية انتهت معها الإمارة وعاد الأمير عضواً عادياً فى الأمة لا لقب يحمله ولا راتب يُفرض له ، والجماعة تسوس نفسها بالخير والبر ومراعاة المثل الأعلى وهو الله سبحانه ، والأسوة الحسنة فى ذلك هى الرسول صلوات الله عليه ، فهو المثل الأعلى فى صورة إنسان من البشر .

وعندما اتسع نطاق الأمة وشملت شبه الجزيرة كلها وأقبلت الوفود إلى رسول الله أتت لتعلن دخولها فى الدين والخضوع لشريعته . ولم يطالب رسول الله وفداً من الوفود بأن يقر بطاعة سياسية لشخصه ، وأمامك كتبه التى أعطاها لمن طلب ذلك ممن وفدوا عليه لا تجد فيها أى معنى سياسى ، إنما هى تثبيت لقواعد الإسلام فى قلوب الناس وحضٌ لهم على التمسك بتلك القواعد ، وتثبيت لحقوق كل قوم فى أرضهم التى كانت لهم وتأمين لهم فيها وتحريم العدوان عليهم ، إذ إن المفروض والمطلوب من المؤمنين أن يسوسوا أنفسهم بأنفسهم ، وأن تكون فيهم أمة أى جماعة منهم تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتواصل الجهاد فى سبيل الله ، فإذا كانت هناك قيادة فهى

قيادة جماعية وقيادة أبى بكر كانت جماعية وهو نفسه لم يتصور أنه صار رئيساً يأمر وينهى ، ولم يفكر فى أن يكون له راتب ، بل لم يخطر بباله أن ينقطع للإمامة ، وإنما كان الناس هم الذين طلبوا إليه ذلك طواعية دون أن يروا فيه حاكماً ومُعَيَّنًا ، ومضى يسوس جماعتهم سياسة جماعية ، يستشير فى كل حين ويأخذ بما يشير به الناس عليه .

وعمر أيضاً سار على مذهب القيادة الجماعية ، وهو لم يمارس سلطانَه على أنه رئيس بل مستحث للناس على المسارعة إلى القيام بالواجب ، وعندما دعا الناس إلى التطوع لفتوح فارس اختار من تقدم متطوعاً ، واختار أبا عبيد بن مسعود ، وعندما طلبوا إليه أن يُؤمِّر عليهم واحداً من أهل السابقة إلى الإسلام أبى وقال كلمته التى سبق أن ذكرناها : لا والله ما أفعل ، إن الله رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو فإذا جبنتُم وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء ، والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً .

وبالفعل ولى أبا عبيد بن مسعود بن عمرو وهو من بنى غِيرَة بن عوف من ثقيف ، وليست لدينا حالة واحدة اعتسف فيها عمر بن الخطاب طريقه وتصرَّف برأيه دون استشارة ، وقد حدث مراراً أن استشار ولم يأخذ برأى من أشاروا عليه ولكنه كان يعرف ويعترف فى تلك الحالات بأنه يتصرف على مسئوليته ويتحمل هذه المسئولية ، وكان شعوره بالأمة ومسئوليته عنها وأمامها عظيماً عميقاً .

لقد روينا كيف اختار أبا عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفى لقيادة الحرب فى العراق مع المثنى بن حارثة ، ولكنه إذ بعثه أمره بأن يستشير قال : « اسمع من أصحاب النبى ﷺ وأشركهم فى الأمر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف »[1] . وعندما اختار عمر أبا عبيد بن مسعود اختاره على مسئوليته ، وأبو عبيد أعجبه اختيار عمر إياه فتفانى إلى النهاية وأخذ عن عمر درس الإخلاص للأمة والإحساس بأنه جزع منها لا تميزه

---

(١) الطبرى ، تاريخ ٣/ ٤٤٥ .
وتفسير هذه : لا تسرع إلى الحركة حتى تتبين طريقك ، لأن الحرب لا تنفع فيها السرعة الهوجاء وإنما يصلح لها الرجل الصبور الذى يروى أمره ويعرف متى ينتهز الفرصة ومتى يكف .

القيادة عن إخوانه المسلمين بشيء ، فقد حكى الطبرى بإسناده قال « لما هزم جالنوس (قائد الفرس) وأصحابه دخل أبو عبيد باروسما ونزل هو وأصحابه قرية من قراها ، فاشتملت عليهم ، فصُنع لأبى عبيد طعام فأُتى به ، فلما رآه قال : ما أنا بالذى آكل هذا دون المسلمين ! فقالوا له : كُلْ فإنه ليس من أصحابك أحد إلا وهو يؤتى فى منزله بمثل هذا أو أفضل ، فأكل فلما رجعوا إليه (أى أصحابه) سألهم عن طعامهم ، فأخبروه بما جاءهم من الطعام »[1] .

وهذه القدوة الحسنة أخذها الناس عن عمر وهذه أيضاً هى روح القيادة بمعناها الإسلامى الذى أخذه عمر عن رسول الله ﷺ وأخذه الناس عن عمر : فإذا كان رسول الله يوم فتح مكة قد أعفى قريشاً من كل مسئولية عن موقفها المعادى للإسلام قبل الفتح وترك لها الباب مفتوحاً لتدخل دين الله فدخلت ، فإن أبا بكر هو الذى أخذ بيد زعماء الكفر السابقين وعهد إليهم فى القيادات فبدأت قريش تستعيد رياستها للعرب ، وبفضل أبى بكر أَهَّلَتْ قريش نفسها لتستحق هذه القيادة فى ظل الإسلام ثم جاء عمر فضرب ذلك المثل الرائع فى القيادة القرشية ، ومعظم ما تمتعت به قريش من جاه بين العرب والمسلمين راجع إلى المثل العظيم الذى ضربه أبو بكر وعمر .

وإليك مثل رائع عن اقتداء الناس بعمر فى خلقه وقيادته وإخلاصه للمسلمين الصادقين وتفانيه فى حبهم ، قال الطبرى فى حديثه عن معركة القرقس بين العرب والفرس وتسمى قس الناطف والجسر والمروحة أيضاً ، وهى معركة خسرها المسلمون ، ولكن تصرف المسلمين فيها كان أروع من كل نصر ، قال الطبرى : « فلما رأى أبو عبيد ما يصنع الفيل قال : هل لهذه الدابة من مقتل ، قالوا : نعم ، إذا قُطع مشفرها ماتت فشد على الفيل فضرب مشفره فقطعه ، وبرك عليه الفيل فقتله » . وقال أيضاً « فرجعت الفرس (أى : كرُّوا على المسلمين وحصروهم فى موضع ضيق يحيط به الماء وأصابوا منهم مقتلة كبيرة) ونزل المثنى بن حارثة أُلَيْس ، وتفرق الناس فلحقوا بالمدينة (أى : فروا حتى دخلوا المدينة) فكان أول من قدم المدينة بخبر الناس عبد الله بن زياد بن الحصين الخطمى ، فأخبر الناس » .

---

(١) الطبرى ، ٣/ ٤٥٢ .

ثم يقول الطبرى بعد إسناد آخر عن عائشة رضى الله عنها « سمعتُ عمر بن الخطاب عندما قدم عبد الله بن زيد فنادى : الخبر يا عبد الله بن زيد : قال : أتاك الخبر يا أمير المؤمنين ، فلما انتهى إليه أخبره خبر الناس . فما سمعت برجل حضر أمراً فحدث عنه كان أثبت خبراً منه فلما قدم فلُّ الناس (أى : فلول المنهزمين) ورأى عمر جزع المسلمين من المهاجرين والأنصار من الفرار ، قال : لا تجزعوا يا معشر المسلمين أنا فئتكم . إنما انحزتم إلىَّ » وفى خبر آخر «أن معاذاً القارىء أخا بنى النجار كان ضمن من شهدها ففر يومئذ فكان إذا قرأ هذه الآية ﴿ **وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ (١) بكى ، فيقول له عمر : لا تبك يا معاذ ! وأنا فئتك وإنما انحزتَ إلىَّ » .

أبو بَكر كان يَعرف مَطامع القرشيّين ويحذرهم مِنها :

وهذا التراث العظيم الذى خلفه عمر لقريش ، من خلق سَامٍ وإسلام شامل عميق وفهم وثيق لمعنى الرياسة والقيادة ومسئولياتها ، ضيَّعته قريش فى برهة زمان أو فى لا زمان « كما يقول الإنجليز » ، فإن عمر رضى الله تعالى عنه توفى طعيناً شهيداً فى ٢٩ ذى الحجة سنة ٣٥هـ/ ٦ نوفمبر ٦٤٤م . وبدأ اجتماع أهل الشورى ، وخلال الأيام القليلة التى دامتها مشاورات أهل الشورى بدأ الصدع الخطير الذى لم يُرأب حتى اليوم ، لأن أهل الشورى فيما يبدو لم يقدروا خطورة الأمر الذى وُكِل إليهم : أمر اتخاذ القرار فيه ، ولا شك فى أن كلاً منهم كان يعرف أصحابه حق المعرفة ويعرف مَنْ أقدرهم على ولاية أمر الأمة وأن الهوى مال بهم عن هذه الغاية ، وما نقول هذا من عندنا ولكن سبقنا أبو بكر الصديق إلى قول مثله ، فقد خاطب أولئك القوم يحذرهم من الهوى وهو على فراش موته بعد أن وقع اختياره على عمر .

فقد روى الطبرى بسند يرجع إلى عبد الرحمن بن عوف : قال الطبرى إنه (أى عبد الرحمن بن عوف) «دخل على أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فى مرضه الذى توفى فيه فأصابه مهتماً ، فقال عبد الرحمن : أَصْبَحْتَ والحمد لله بارئاً ! فقال أبو بكر

---

(١) سورة الأنفال ٨/ ١٦ .

رضى الله عنه : أتراه ؟ قال : نعم ، قال : إنى ولَّيتُ أمركم خيركم فى نفسى ، فكلكم وَرِم أنفه من ذلك (يريد أن يكون الأمر له دونه) ، ورأيتم أن الدنيا أقبلت ولم تقبل وهى مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد (وسائد) الديباج وتألموا الاضطجاع على الصوف الأذربى (فى أذربيجان) كما يألم أحدكم أن ينام على حسك ، والله لأن يقدم أحدكم فتُضرب عنقه فى غير حد خير له من أن يخوض فى غمرة الدنيا ، وأنتم أول ضال بالناس غداً فتصدونهم عن الطريق يميناً وشمالاً . يا هادى الطريق إنما هو الفَجَر أو البجر (الأمر العظيم) فقلت له (والمتكلم هنا عبد الرحمن بن عوف) : خَفض عليك رحمك الله ، فإن هذا يهيضك (يضعفك) فى أمرك . إنما الناس فى أمرك بين رجلين : إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك وصاحبك (يريد عمر) كما تحب ولا نعلمك أردتَ إلا خيراً ، ولم تزل صالحاً مُصلحاً ، وأنك لا تأسى على شىء من الدنيا »[1] .

وكلام أبى بكر يدل دلالة واضحة على أنه يعرف ما كان يجرى فى أذهان أصحابه ، فكلهم كان يريدها لنفسه ، وكلام عبد الرحمن بن عوف ليس فيه تسليم بما أمر به أبو بكر من اختيار عمر . فإذا كانت هذه هى حقيقة الموقف بالنسبة لعمر فكيف والله يرشحون علياً أو أى رجل آخر كان من الممكن أن يحملهم على الطريق . ولسنا هنا فى موقف المفاضلة بين صحابى وصحابى فكلهم عندنا من أهل الرضا ، ولكن الذى وقع بالفعل أنهم رشحوا عثمان ، وهم يعرفون أن إمارة عثمان هى إمارة بنى أمية والرجل كان محاطاً بأهله دائماً قبل خلافته وبعدها ، فقد كانوا دائماً أهل رأى ومشورة ولم يكن هناك شك فى أنه سيستعين بهم ، وكانت فى الكثيرين منهم كفاية فى شئون الحرب والإدارة ، وكان فيهم تطلع للرياسة وهذه صفة قديمة معروفة فى بنى عبد شمس جميعاً . وأبو بكر وعمر اختارا منهم الكفاة لأعاظم المسئوليات ، ولكن أبا بكر وعمر كانا أقوى من أن يصرفهما عن الجادة إنسان فلم يكن هناك ضير فى الانتفاع بهم ، وأما عثمان فكان بعيداً عن ذلك ثم إنه كان عليل الصحة ، عالى السن ولأسابيع فحسب من ولايته أحسَّ الذين اختاروه أنهم لم ينصفوا فى الاختيار .

---

(١) الطبرى ، تاريخ ٣/ ٤٢٩ - ٤٣٠ .

أجل ولم ينصفوا قريشاً بذلك وهذا هو الذى يعنينا فى هذا المقام ، لأن قريشاً استحوذت على الرياسة بفضل المثل العظيم الذى ضربه أبو بكر وعمر وكان لا بد لقريش أن تسير فى هذا الطريق إذا أرادت أن تدوم لها الرياسة ، أما وقد عجزت عن ذلك وقصرت فيه وأسلمت قيادة الأمة إلى بيت شديد العصبية القبلية ، شديد التهافت على الدنيا والسلطان والجاه فقد مهدت الطريق بذلك لضياع أمرها .

وقد ضربنا لذلك أمثلة ، أوضحها ما كان من أمر استشهاد الحسين بن على وآله فى كربلاء ، ومع أن الذين حسبوا أنفسهم المنتصرين فى تلك المأساة كانوا قرشيين ، إلا أنه غاب عنهم أن هيبة قريش انصدعت فى ذلك اليوم ، لأنها انقسمت على نفسها انقساماً خطراً واستعان بعضها على بعض بجند مرتزق من أجلاف الأعراب واستحل بعضهم دماءَ بعض فهانت دماؤهم جميعاً على الناس ، ولا يقال هنا : إن عرب الشام انتصروا على عرب العراق من أنصار على بن أبى طالب لأنهم كانوا أشجع أو أشد إيماناً بقضيتهم ، وإنما نقول : إن ذلك يرجع إلى أن جند الشام كان جنداً نظامياً مدرباً فى حين أن جند على بن أبى طالب كانوا رجالاً متطوعين من أهل الكوفة فى الغالب فهم يحاربون احتساباً ، حرب المتحمس غير المتمرن للحرب ، والحرب حرفة كغيرها ، يحسنها المتدرب عليها المجرب فيها .

وقد كان رسول الله ﷺ يعرف هذه الحقيقة ، فهو يوم استقر فى المدينة وبدأ ينشىء الأمة عرف أنها لابد أن تكون أمة مناضلة أى ما يسمى فى مصطلح اليوم بلفظ «مليتانت» وإلى هذا الإدراك البعيد يرجع اهتمامه الدائم بتدريبه رجال الأمة على القتال واختيار المؤهلين بطبعهم للقيادات ، وقبل معركة بدر كان المسلمون قد خاضوا ثمانى معارك وثامنتها وهى سرية نخلة كانت أبعدها مدى وأطولها نجعة فقد وصلت إلى حدود حرم مكة وكان فيها قتال وقَتْل مع قريش ، وبعدها مباشرة نزلت آية القتال . والثلاثمائة ونيف الذين ساروا للقتال فى بدر كانوا جيشاً نظامياً مدرباً على الحرب عارفاً بما ينبغى لها ، بل كان فيهم رجال عمليات عسكرية أو تكتيكيون كما نقول ذوو فهم لطبيعة الحرب وأساليب إدارة المعارك .

وخبر الحُباب بن المنذر بن الجموح فى وضع خطة المعركة معروف ، وكان هناك

بشير بن سعد وكان من الموهوبين فى قيادة الحروب ، وقد وصل به الرسول ﷺ إلى مستوى رفيع من المهارة العسكرية ، هذا إلى جانب الإيمان الذى لا غنى عنه ، أما القرشيون فكانوا سادات أهل فروسية ونخوة ولا زيادة ، وهذا فإن المعركة لم تدم فى حقيقة الأمر إلا بعض ساعات وبقيتها إلى الظهر كانت معركة أبى جهل أى معركة القضاء عليه ، فقد أصر المسلمون على قتله واستأسد قومه للدفاع عنه وقتل منهم سبعة عشر رجلاً فى معركة الدفاع عنه وأخيراً سقط ، وعندما سقط سقطت معه الجاهلية .

مَسؤولية عَلى بن أبى طالب :

وقد تعودنا أن نلقى مسؤولية الفتنة كلها على بنى أمية ويفوتنا هنا أن نذكر أن على ابن أبى طالب عندما قامت الفتنة الحقيقية عقب مبايعته بالخلافة فى ١٧ ذى الحجة سنة ٣٥هـ كان ولى أمر هذه الأمة ، ولابد أن يكون له جانب من المسؤولية عما حدث ، فإن بداية الفتنة عليه كانت إنكار طلحة والزبير وبعض أتباعهما للبيعة التى أعطوها إياه فى المدينة وقد فعلا ذلك بمجرد وصولهما إلى البصرة . ولحقت بهما عائشة رضى الله عنها . وعندما أصر علىٌ على عزل ولاة عثمان تصدى له معاوية وتشجع بما فعل طلحة والزبير وعائشة . وقد تسرع على بن أبى طالب فخرج بمن معه إلى الكوفة ليقضى على فتنة طلحة والزبير فى البصرة . وقد غاب عنه أن مركز الفتنة الحقيقية كان فى دمشق ولم يضر علياً شىء مثل الذهاب إلى الكوفة ، ولو أنه تدبر أمره لبقى مكانه فى قاعدة خلافته وندب الناس لقتال معاوية ، بل ربما كان أحجى لو أنه دعا معاوية مثنى وثلاثاً وأطلق له بعض الوقت ليروى أمره ، وفى نفس الوقت كان يستطيع أن يستدعى الناس لنصرته ، ولم يكن موقف على فى المدينة إذ ذاك بأسوأ من موقف أبى بكر عند الردة ، ولكن أبا بكر ظل مكانه ودعا الناس فَلَبَّوْا دعوته فرتب الجيوش واختار القادة وبقى هو فى قاعدة خلافته ، لأن بقاء رئيس الأمة فى عاصمته أعون على النصر ، ولو تريث علىٌ شيئاً وبعث يدعو الناس للبيعة فقد كانت المدينة لا زالت مركز كبار الصحابة ، وكان هناك الأنصار مستعدين لتأييده .

وفى مثل هذه المواقف لا ينفع الرئيس شىء مثل الروية والتدبر والثبات فى موضعه

ليتجمع حوله الناس ، وللمدينة هيبتها ومعظم العرب كانوا مستعدين لنصرته ، ولم يكن الناس فى كل مكان راضين على ولاة عثمان ، ولو بقى على فى المدينة لاحتفظ بوزنه لأنه بين قوم لهم فى الإسلام سابقة وفضل ، وكان معه من قريش عدد عظيم ، ومهما بلغ من أمر طلحة والزبير فما كانا فيما نظن بمهددين لعلى فى المدينة ، فلو أقام وتأهب وجمع إليه الناس لتكفلت هيبته وهيبة الخلافة ومكانة المدينة بكسب المعركة ، ومن المكاسب على أى حال أن جلة قريش كانوا فى الحجاز ، بل إن بعض بنى أمية وخاصة مروان بن الحكم وبقية آل بيته لم يكونوا راضين عن معاوية وما فعل ، ومن المعروف على أى حال أن صاحب السلطان إذا أقام فى عاصمته كان ذلك أضمن لقوته واستمرار هيبته ، وهيبة ولى الأمر هى أكبر عماد له فى تثبيت سلطانه .

أَمَا وقد خرج من المدينة فقد ترك وراءه قاعدة خلافته وسلطانه وهيبة المدينة ومكة والأنصار وجِلَّة المهاجرين وذهب إلى جماعات من المقاتلة معظمهم من تميم وكندة والأعاريب لم يعرفوا رسول الله ﷺ ولا امتلأت قلوبهم بهيبة الصحابة وجلال المدينة، والحق أن علىَّ بن أبى طالب عندما وصل ذا قار واستقر بها يستعد لدخول الكوفة نشعر أن الأمر خرج من يده . وكل يوم يرد عليه ناس لا يدرى حقيقة ما فى نفوسهم ونجده بعد أن ترك قاعدة سلطانه يحاول أن يقنع الناس ويجمعهم تحت رايته ليقضى على الفتنة ، ولكن أى ناس ، لقد كان عرب الكوفة إلى الأمس القريب ينظرون إلى قريش نظرتهم إلى القائد ، أما الآن وقد ترك علىٌّ قاعدته وألقى بنفسه بينهم فهم يتعللون ويتتايعون ثم يجرؤ ناس منهم عليه من أمثال : مسعر بن فَدَكىّ التميمى ، وزيد بن حصين الطائى ، وشبث بن رِبعى ، والأشعث بن قيس الكندى ويجترئون عليه بما لا يليق .

فعندما تبينت لعلى خدعة التحكيم نهى أصحابه هؤلاء عن الاستجابة لها ، فيقول له « مِسعر بن فَدَكىّ التميمى ، وزيد بن حصين الطائى ثم السنبسى ، فى عصابة معهما من القراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك : يا على أجب إلى كتاب الله عز وجل إذ دعيت إليه وإلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان ، إنه علينا أن نعمل بما فى كتاب الله عز وجل فقبلناه ، والله لتفعلنَّها أو لنفعلنها بك . قال : فاحفظوا

عنى نهيى إياكم ، واحفظوا مقالتكم لى. أما أنا فإن تطيعونى تقاتلوا، وإن تعصونى فاصنعوا ما بدا لكم ! قالوا له : فابعث إلى الأشتر فليأتِك »[1] .

فهل كان يمكن أن يسمع على بن أبى طالب مثل هذا الكلام لو أنه بقى فى المدينة فى دار الهجرة وقاعدة الدولة وبين جِلَّة الصحابة والمهاجرين والأنصار الذين يعرفون قدره وإن اختلف بعضهم معه فى الرأى ، ولكنه الآن مع أولئك الأجلاف الذين خدعهم معاوية وأصحابه بمكيدة الاحتكام إلى كتاب الله ، وهل كان على منذ تولى الخلافة إلا على كتاب الله .

وكما قلنا إن طلائع العصيان الجاهل على علىٍّ بدأت بعد استقراره فى الكوفة ، بين ناس من العرب لا يعرفون قدره وليس لديهم أى تقدير لمركز الخلافة وصاحبها ، ومن هنا فقد جرؤوا عليه وتطاول بعضهم عليه منذ البداية وظن بعضهم أن الخليفة محتاج لعونهم معتمد عليهم ، وصدرت عن بعضهم أقوال مثل : قال قائل : « علام قتلنا الشيخ (يريد عثمان) إذ اليمن لعبيد الله بن عباس والحجاز لقثم (بن العباس) والبصرة لعبد الله (بن عباس) والكوفة لعلى »[2] وكلما طال به الأمر فى ذى قار ثم فى الكوفة اشتد النقد وتبيَّن على أنه دخل فيما يشبه المغامرة ، ويسيطر على الموقف من دونه رجال من أمثال مسعر بن فدكى الذى ذكرناه ثم يخرج عليه الخوارج ويبايعون من دونه عبد الله بن وهب الراسبى ، والأمر يزيد بعد ذلك سوءاً .

ونحن منذ خرج على من المدينة نرى قريشاً تقاتل قريشاً وجماعات العرب يلتفون حول هذا وذاك من رجالات قريش ، والقصة طويلة وردت إلينا فى روايات شتى والذى يعنينا من أمرها فى بحثنا هذا أن قريشاً فقدت هيبتها جملة ، ففى كل جانب من المتقاتلين من قريش جماعة من العرب يملكون زمام الأمر . ونضيف هنا أنه حتى عندما ينتصر معاوية لا يحسب هذا النصر لقريش . والنصوص كثيرة عن جرأة هؤلاء الأعراب على علىٍّ وتصورهم أنهم عماده بل هدده بعضهم بتسليمه إلى أعدائه ، وما كان شىء من ذلك ليحدث لو أن علياً قرَّ فى مكانه فى المدينة ، واستدعى الأنصار

---

(١) الطبرى : ٥/ ٤٩ .
(٢) الطبرى ، تاريخ ٤/ ٤٩٢ .

والناس ليؤيدوا خليفة المسلمين ، وهنا كان يستطيع أن يرسل رجلاً يختاره على رأس جيش ليقضى على معاوية فى الشام فتنتهى الفتنة ، أما ذلك الخروج من المدينة إلى الكوفة والاعتماد على جماعات من العرب ما كان لهم قط أن يكونوا أصحاب الرأى فى ذلك الموقف الحرج فقد أضر بقضية على وبمركز الخلافة ضرراً بليغاً .

ويبدو على الجملة أن السياسة لم تكن ميدان على بن أبى طالب إنما هو رجل فضيلة وفضل وعلم وبسالة فى القتال ، ولا شك فى أن علياً شعر بخطئه فى الخروج من المدينة إلى الكوفة عندما استقر هناك وسط أولئك الأعراب ، ولم يكن الكثيرون منهم مقاتلين ، وإنما هم كانوا راحلين من قلب الجزيرة إلى الكوفة ليتوجهوا منها إلى المهاجر حيث يلحقون بذويهم وأبناء قبائلهم فيها . فالموجودون منهم فى الكوفة اليوم قد لايكونون موجودين غداً . أما أهل الكوفة أنفسهم فلم يكونوا بمقاتلين ولا كانوا على استعداد ليقاتلوا فى سبيل على ، إنما هم أهل معايش ومتاجر وخدمة ، وهؤلاء لا شأن لهم بقتال وإذا كانت تصرفات بنى أمية وتهافتهم على السلطان قد كانت ذات أثر بعيد فى سقوط هيبة قريش وافتراق أمرها ، فلابدّ أن نضيف هنا أن علىَّ بن أبى طالب لولا أنه خرج من مدينة الرسول ﷺ وترك هيبتها وراءه لما تيسر لهم ذلك .

بَنو أميَّة

وَنصيبهم فى القَضاء عَلى هَيبة قريش :

ونأتى هنا فى سياق هذا الكلام على خروج الأمر من يد قريش بلمحات من عدوان أعاريب نجد أعداء قريش على المدينة وأهلها ، واجترائهم على الكعبة المكرمة بأوامر من الخلافة الأموية ، لنرى كيف أن آل سفيان وآل مروان قد ضحوا بشرفهم جملة لكى يصلوا إلى ما اعتقد رجالهم أنه نصر لهم وفوز بالسلطان والرياسة ، وهو فى الحقيقة عين الهزيمة .

ذلك أن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ظن أنه عندما أرسل مسلمَ بن عقبة المرى ثم الحصين بن النَّمر الكندى لاقتحام المدينة وقتال الأنصار ثم انتهاك حرمة مكة فى ذى الحجة سنة ٦٣هـ ، ظن أنه يكسب كسباً سياسياً عظيماً أو عندما نفذ ذلك المرى

الكافر الجافى القلب ما أمر به يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، وقام بهذه الشناعة التى هى وصمة فى جبين المسلمين جميعاً . كان فى الحقيقة يحطم قريشاً بقريش ويشفى غليله بالعبث بالقرشيين ، فلننظر الآن موقف هذا الرجل من سادته بنى أمية ، ولنذكر هنا أن أهل المدينة الذين أنكروا بيعة يزيد بن معاوية لم يكونوا كلهم من الأنصار ، بل كان فيهم قرشيون ومهاجرون أيضاً ، والمعرة التى لحقت بأهل المدينة نتيجة لموقعة الحرة تلحق هؤلاء جميعاً .

وكان مروان بن الحكم وابنه عبد الملك بن مروان ونفر من بنى أمية فى المدينة فدعاهم مسلم بن عقبة المرى إلى خيانة أهل المدينة والانضمام إليه والإشارة عليه بما يعرفون من عورات المدينة ، فأما مروان بن الحكم فلم يرض ، وأما عبد الملك بن مروان فقد استجاب ودخل فى خدمة رجل مرة .قال الطبرى راوياً عن ابن مخنف وعبد الملك بن نوفل : « وقد كان أهل المدينة قد اتخذوا خندقاً فى جانب المدينة ونزله منهم جمع عظيم وكان عليهم عبد الرحمن بن زهير بن عبد عوف ابن عم عبد الرحمن ابن عوف المرى ، وكان عبد الله بن مطيع على ربع [1] آخر من جانب المدينة ، وكان معقل بن سنان الأشجعى على ربع آخر فى جانب المدينة ، وكان أمير جماعتهم عبد الله ابن حنظلة الغسيل الأنصارى [2] فى أعظم تلك الأرباع وأكثرها عدداً » .

قال هشام (بن السائب الكلبى) : « وأما عوانة بن الحكم الكلبى فيذكر أن عبد الله بن مطيع كان على قريش من أهل المدينة . وعبد الله بن حنظلة الغسيل على الأنصار ، ومعقل بن سنان على المهاجرين »[3] .

وقد انهزم أهل المدينة فى ذلك اليوم الأسود لأنهم كانوا مؤمنين متطوعين يقاتلون جنداً مرتزقاً مدرباً على الحرب مزوداً بالحراب والنَّبْل أضعاف ما كان عند أهل المدينة ، وقد أصاب القرشيين : أمويين وهاشميين من أهل المدينة فى ذلك اليوم قدر ما أصاب الأنصار ، واقرأ الخبر التالى « قال هشام : حدثنى عوانة قال : دعا النَّاسَ

---

(١) المراد بالربع هنا قسم من المدينة .

(٢) هو ابن حنظلة بن أبى عامر الراهب الذى يسميه المسلمون بالفاسق ، وقد قُتِل حنظلة هذا فى موقعة أحد وقيل : إن الملائكة غسَّلته فسمى بغسيل الملائكة .

(٣) الطبرى ، ٥/ ٤٨٧ .

مسلم بن عقبة المرى بقباء إلى البيعة ، وطلب الأمان لرجلين من قريش : ليزيد بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ومحمد بن أبى الجهم بن حذيفة العدوى ولمعقل بن سنان الأشجعى ، فأتى بهما [الصواب بهم] بعد الوقعة بيوم ، فقال بَايعا فقال القرشيان : نبايعك على كتاب الله وسنة نبيه ، فقال : لا والله لاأقيلكم هذا أبداً فقدمهما فضرب أعناقهما ، فقال له مروان (بن الحكم) : سبحان الله أتقتل رجلين من قريش أتيا ليؤمنا فضربت أعناقهما فنخس بالقضيب فى خاصرته، ثم قال : وأنت والله لو قلت بمقالتهما ما رأيت السماء إلا برقة » (١) .

بل حدث لقريش ما هو أسوأ من ذلك على يد هذا الرجل ، وجدير بالذكر هنا أن هذا المرى ينتسب إلى مُرة بن عوف بن سعد بن ذبيان من غطفان ، فهو إذن ابن عم عيينة بن حصن الفزارى ، وطالما لقيتْ فزارة ومرة الهوان على يد قريش قبل الإسلام وبعده ، فقد أتى بيزيد بن عبد الله بن زمعة (من بنى أسد بن عبد العزى) « فقال : بايع قال : أبايع على سُنة عمر ، قال : اقتلوه . قال : أنا أبايع ، قال : لا والله لا أقيلك . فكلّمه مروان بن الحكم لعهد كان بينهما ، فأمر بمروان فَوُجِئت عنقه ثم قال : بايعوا على أنكم خَوَلٌ ليزيد بن معاوية ثم أمر به فقُتِل » (٢) .

وإذن : فهذا الرجل المرى الغطفانى يتغالى فى تشدده نكالاً بقريش ، فقد أهان مروان بن الحكم وقتل هذين القرشيين ، وواحد منهما أراد أن يبايع يزيداً فلم يأذن له وقتله ولم يرض إلا أن يبايع الناس قرشيين وغير قرشيين على أنهم عبيد ليزيد بن معاوية ، والغرض الحقيقى وراء هذا التشدد هو أنه أراد أن يذل القرشيين بنفسه ، وأن يحكم عليهم بأن يصيروا عبيداً . وما نقول هذا من عندنا ولكن ، إليك خبر يكشف عن هذه الحقيقة فقد كان واحد من الرجال الذين قتلهم مسلم بن عقبة المرى على هذه الصورة ، معقل بن سنان الأشجعى .

وكان معقل بن سنان هذا قد أنكر خلافة يزيد بن معاوية وقال كلمة مهينة فى حقه ، ثم أضاف إليها عبارة لم يغفرها له هذا المرى الغطفانى ، فقد روى الطبرى عن

---

(١) الطبرى ، ٥/ ٤٩١ - ٤٩٢ .
(٢) الطبرى :٥/ ٤٩٢ - ٤٩٣ .

هشام بن السائب الكلبى عن عوانة بن الحكم ، أن مسلم المرى عندما قدم معقل بن سنان للقتل قال له : « أنت الذى لقيتنى بطبرية ليلة خرجت من عند يزيد (بن معاوية) فقلت : سرنا شهراً ورجعنا من عند يزيد صفْراً نرجع إلى المدينة فنخلع هذا الفاسق ونبايع لرجل من أبناء المهاجرين : فيمَ غطفان وأشجع من الخَلْعِ (وفى رواية : من الخلق) والخلافة : إنى آليت بيمينى لا ألقاك فى حرب أقدر فيه على ضرب عنقك إلا فعلت : ثم أمر به فقُتِل » .

إذن : فهو ثأر مبيَّت عند أبناء هذه القبائل الحاقدة على قريش الناقمة عليها أدركته على يد قريش نفسها ، فتميم والأزد من ناحية تتشفى من قريش بقتل الحسين وآله ، وكندة وطىء من ناحية أخرى تتلذذ بالاستبداد بعلى بن أبى طالب ، وهذا هو المرى الغطفانى يتشفَّى من رجل لأنه قال : وما لغطفان وأشجع من الخلافة والخلع .

وكل ذلك فعلته قريش بنفسها !

وقد روى الطبرى عن الواقدى خبراً إن صح فهو بمثابة تقرير لما فعلته قريش بنفسها ، فقد روى أن عمرو بن العاص كان مختلفاً مع عثمان ناقماً عليه بسبب عزله إياه عن مصر ، فمضى يحرض على عثمان ، ثم اعتزل فى بيت له فى جنوبى فلسطين وظل يحرض على عثمان ، فلما بلغه خبر مقتل عثمان قال لرجل كان معه يسمى سلامة ابن روح الجذامى « أنا أبو عبد الله ، إذا حككت قرحة نكأتها إنى كنت لأحرض عليه حتى إنى لأحرض عليه الراعى فى غنمه فى رأس الجبل ، فقال له سلامة بن روح الجذامى : يا معشر قريش ، إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتموه . فما حملكم على ذلك ؟ فقال : أردنا أن نخرج الحق من حافرة الباطل ، وأن يكون الناس فى الحق شرعاً سواء» [1] .

والحقيقة أن قريشاً عندما استولت على الأمر وتورطت فى السياسة عجزت عن القيادة واختلف بعضها مع بعض واحتربت فيما بينها ، فجرؤ عليها الناس وضاع أمرها ، وقد روى الطبرى بإسناده فى أثناء القتال بين على ومعاوية فى صفين ، أن علياً

---

(١) الطبرى ، ٤/ ٣٥٦ .

كان يرجو أن يتوقف معاوية وأصحابه عن القتال ويسلموا له لتجتمع الكلمة ، فأقبل رجل من غير قريش يسمى كعب بن سُور فنصح علياً بأن يكر بمن معه على أعدائه فيفنيهم ، فقال له أصحاب على من القرشيين : « يا كعب ، إن هذا أمر بيننا وبين إخواننا وهو أمر ملتبس . لا والله ما أخذ أصحاب محمد ﷺ منذ بعث الله نبيه طريقاً إلا علموا أين مواقع أقدامهم حتى حدث هذا ، فإنهم لا يدرون أمقبلون هم أم مدبرون ! إن الشيءَ يَحْسُن عندنا اليوم ويقبح عند إخواننا ، فإذا كان من الغد قبح عندنا وحَسُن عندهم وإنَّا لنحتج عليهم بالحجة فلا يرونها حجة ، ثم يحتجون بها على أمثالها ، ونحن نرجو الصلح إن أجابوا إليه وتموا ، وإلا فإن آخر الدواء الكى »[1] .

* * *

(١) الطبرى ، ٤/ ٤٩٥ .